الإسلام يتحدث عن نفسه

إعداد

نخبة من شباب أئمة وزارة الأوقاف

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

القاهرة

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فيسرني أن أعبر عن سعادتي بهذا التحول الإيجابي والعلمي في شخصية العديد من شباب أئمة وعلماء الأوقاف، الذين بدءوا إلى جانب عملهم الدعوي في تكوين أنفسهم تكوينًا علميًّا متميزًا ، سواء في المجالات العلمية والثقافية ، أم في مجال تعلم اللغات الأجنبية ، أم في المشاركات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية ، مما انعكس على شخصياتهم وبدأ أثره واضحًا في تناولهم للقضايا الدعوية : خطبة ، أو ندوة ، أو خاطرة ، أو درسًا دعويًّا.

كما اتجه بعضهم وبقوة إلى البحث العلمي فحصل المئات منهم على درجة الماجستير أو الدكتوراه ، واتجه بعضهم إلى التأليف أو المشاركة فيه ، مما دفعنا إلى العمل على إفساح الطريق أمام أكبر عدد منهم للمشاركة في الأعمال العلمية والدعوية والقيادية ، ودفعني دفعًا إلى تشجيهم على إخراج مجموعة من الموسوعات والكتب ، سبق أن قدمنا منها موسوعة الخطب العصرية في أربعة أجزاء ، وسنشرع قريبًا بإذن الله تعالى في نشر الجزء الأول من موسوعة الدروس الأخلاقية.

وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئ تحت عنوان " الإسلام يتحدث عن نفسه" هو نتاج وجهد مجموعة من هؤلاء الشباب الواعدين المتميزين ، آثرت أن أشاركهم فيه بهذه التقدمة وبالموضوع الأول فيه دعمًا لهم من جهة ، وتقديرًا لجهودهم من جهة أخرى .

وإني لأسأل الله (عز وجل) لي ولهم السداد والتوفيق والقبول ، والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د / محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
عضو مجمع البحوث بالأزهر الشريف
ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإسلام يتحدث عن نفسه (*)

الإسلام قطعة ذهب لا تحتاج أكثر من أن نجلي ما علق بها أو ران عليها من بعض الغبار المتطاير أو حتى المتراكم ، لأن المعادن النفيسة لا تصدأ ولا يصيبها العطب مهما كانت عوامل الزمن وتداعياته وأحداثه وتراكماته.

فعلى الرغم مما أصاب صورة الإسلام من جرّاء الجماعات الإجرامية المتطرفة من أمثال داعش ، وبوكوحرام ، والقاعدة ، وجبهة الخذلان ، وأعداء بيت المقدس ، وجند الشيطان ، وجماعة دعم الخراب والدمار المسماة زورًا وبهتانًا وافتراء دعم الشرعية ، تلك الجماعات المأجورة لصالح قوى الشر ، على الرغم من ذلك كله فإن الإسلام بفضل أبنائه المخلصين وعلمائه المتخصصين قادر على محو آثار ذلك كله ، وأن يتحدث عن نفسه ، وأن يعبر

*) كتبه معالي أ.د/ محمد مختار جمعة وزير الأوقاف.

عن حقيقته العظيمة السمحة الحضارية الإنسانية النقية ، المتسقة مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، القائمة على أنه حيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ، وعلى أنه دين الرحمة والأمن والأمان والسلام للعالم كله ، حيث يقول الحق سبحانه:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[سورة الأنبياء : ١٠٧] ، ولم يقل سبحانه: رحمة للمسلمين وحدهم، ولا للمؤمنين وحدهم ولا للموحدين وحدهم ، إنما للعالمين كل العالمين ، حيث كرم الله (عز وجل) الإنسان على إطلاق إنسانيته ، فقال سبحانه :{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

دين لا يعرف الأذى ، فالمسلم الحقيقي فيه هو من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم ، ولما سئل نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة غير أنها تؤذي جيرانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (هي في النار) ، وهو القائل (صلى الله عليه وسلم): (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ،

وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ) قيل : مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : (الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) (رواه البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ) (رواه البخاري).

دين يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ، والتباغض ، والاحتقار ، وسوء الظن لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}[سورة الحجرات :١١-١٢] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا تَبَاغَضُوا



وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) (متفق عليه).

دين يمنع الظلم والغش ، ولو مع أعدائه ، ويحرم سائر الممارسات الاحتكارية لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ) (رواه أحمد) ، وحيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ) (رواه مسلم).

ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (رواه مسلم)، وفي رواية (من غش أمتي فليس منا) ، وفي سنن الترمذي (مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا) بحذف مفعول غش ليشمل كل ألوان الغش، وينهى عن غش جميع البشر مسلما كان المغشوش أم غير مسلم ، إذ لا يليق بالمسلم بأن يكون غشاشًا.

دين يعمل على تحقيق الرحمة للإنسان والحيوان والجماد لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟) ، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (رواه أبو داود) .

دين ينهى عن كل ألوان الفساد والإفساد والتدمير والتخريب ، ويعصم الأموال والأعراض والأنفس ، لهو دين عظيم ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا}[سورة الأعراف :٥٦] ، ويقول الحق : {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[البقرة:٦٠] ، وحيث يقول سبحانه : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ



فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[سورة البقرة :٢٠٤-٢٠٦] ، وحيث نهى نبينا (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل عن أي ظلم أو إجحاف بأموال المستضعفين أو أخذ كرائم أموالهم فقال له : (يا معاذ : إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)(رواه مسلم).

وأخيرًا نستطيع أن نقول إن الإسلام قضية عادلة ودين عظيم وأنه وإن تعرض للهجوم من أعدائه فإن المخلصين من أبنائه قادرون بإذن الله (عز وجل) على تجلية الغبار عنه وعرضه عرضًا صحيحًا من خلال البلاغ الواضح المبين ،

الفاهم لفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، وفقه المتاح ، وفقه الأولويات ، فهمًا يؤهل صاحبه للوفاء بواجب هذا الدين العظيم بما يحمله لصالح الإنسانية جمعاء من سبل السعادة والرقي وما يحمله لمن يعمل به من خير الدارين الدنيا والآخرة.

الإسلام دين الأخلاق (*)

إن الدين الإسلامي هو قوام الحياة الطبيعية وعمادها ، فالحياة بلا وازع ديني حياة بلا قيم ، وبلا أخلاق ، لأن أساس هذا الدين العظيم هو مكارم الأخلاق ومحاسنها ، فما من كتاب دعا إلى مكارم الأخلاق مع كل الناس مثل القرآن الكريم ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) الذي تنزل عليه القرآن كان أنموذجًا عمليًّا في امتثال الأخلاق القرآنية ، فقد كان أجمع الخَلْق خُلُقًا ، لأنه كان أجمعهم للقرآن تطبيقًا وامتثالاً، كما ورد في حديث السيدة عائشة (رضي الله عنها) حين سألها هشام بن عامرٍ (رضي الله عنهما) قال : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، حَدِّثِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَتْ: (أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟) قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ الْقُرْآنَ) (رواه مسلم).

---

*) د/ نوح عبد الحليم العيسوي – مدير عام بحوث الدعوة.

ومن جوانب العظمة في الدين الإسلامي أنه ما ترك فضيلة من الفضائل ولا خصلة من خصال الخير تقربنا من رحمة الله – عز وجل – وجنته ورضوانه إلا وأمرنا بها ورغَّبنا فيها ، وما ترك خُلقًا ذميمًا ولا خصلة من خصال الشر تبعدنا عن رحمة الله – تعالى – إلا ونهانا عنها وحذَّرنا منها ، فهو دين يجمع بين القيم والمُثُل الإنسانية الرائعة التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة.

فالإسلام دين التحلي بمكارم الأخلاق ، فقد دعانا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، ومن ذلك قوله سبحانه – آمرًا رسوله (صلى الله عليه وسلم) –:{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الأعراف: ١٩٩]، وقوله تعالى:{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة: ٨٣]، وقوله تعالى:{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

عَظِيمًا}[النساء: ١١٤] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن تأمل آيات القرآن الكريم ، ودقق النظر فيها ظهرت له آيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق ، ووجوب التحلِّي بها ، وما ذلك إلا لكون الأخلاق ميزانًا شرعيًّا يهذِّب الإنسان ، ويرقى به إلى مدارج الكمال ، فمنه نتعلم الرحمة، والصدق، والعدل، والسماحة، والأمانة، والوفاء بالعهد ، والكرم ، والإيثار ، والحياء ، والشجاعة ، والتواضع ، والعدل ، والإحسان، وقضاء حوائج الناس ، وغض البصر ، وكف الأذى ، وتوقير الكبير ، وطلاقة الوجه وطيب الكلام ، وحسن الظَّن ، ومُراعاة مشاعر الآخرين ، وغير ذلك من الأخلاق التي بها صلاح البلاد والعباد ، ومن ثمَّ يجب على المسلم أن يتحلى بها، ففي ذلك سعادته في الدنيا والآخرة.

كما أكدت نصوص السنة النبوية المطهرة على أهمية الأخلاق في حياة الإنسان ، مبينة الأجرَ العظيم لمن تخلق بالأخلاق الفاضلة ، ومن ذلك قوله (صلَّى الله عليه وسلَّم) :

(الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ) (رواه مسلم).

ومن ثمَّ يتضح أن للأخلاق في الإسلام مكانة خاصة ومنزلة عالية ، فهي لبُّ الدين وجوهره ، فقد سئل (صلى الله عليه وسلم) ما الدين؟ قال: (حسن الخلق) (رواه مسلم) ، بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) أولاها عناية فائقة ، حيث أعلن (صلى الله عليه وسلم) أن الغاية الأولى من بعثته ورسالته إنما هي إتمام مكارم الأخلاق ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مكارم الأَخْلاقِ) (الأدب المفرد للبخاري)، وعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) (رواه أحمد).

الأخلاق والنبوات:

لقد أرسل الله (عز وجل) الرسل (عليهم السلام) بمهام عظيمة أهمها : هداية الخلق إلى الحق ، ونشر الفضيلة بين الناس ، وعلى رأس الفضائل تأتي الأخلاق ، وقد جمع الله

(سبحانه وتعالى) لرسولنا (صلى الله عليه وسلم) مكارم الأخلاق البشرية ، فتألّقت روحه الطاهرة بعظيم الشمائل والخِصال، وحتى قبل الرسالة كان الناسُ يُسمُّونَه بالصادق الأمين ، كيف لا ؟ وقد اصطفاه الله تعالى على بني آدم ، وختم به أنبياءه ، ويكفيه (صلى الله عليه وسلم) شرفًا أن الله (عز وجل) لما مدحه في القرآن الكريم لم يمدحه بشرف النسب ، ولا بجمال الخلقة ، ولا بكثرة العبادة والطاعة ، وإنما مدحه وأثنى عليه بعظمة الأخلاق ، فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم} [القلم: ٤].

وقد كان (صلى الله عليه وسلم) كثيرًا ما يحثُّ على مكارم الأخلاق ويرغب فيها، فمرة يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِكُمْ) (مسند أحمد) ، وسئل (صلى الله عليه وسلم): أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) (سنن ابن ماجه)، ولما سُئِلَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عَنْ أَكْثَرِ

مَا يدخل الناس الجنة، قَالَ: (تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ) (سنن الترمذي).

الأخلاق والعبادات:

المتأمل في النصوص الشرعية يجد أن جميع العبادات تحمل في مضامينها قيمًا ومعانيَ أخلاقية سامية ، ذلك لأن الإسلام قد ربطها جميعها بمكارم الأخلاق ، فما من عبادة شرعها الإسلام من صلاة ، وصيام وزكاة ، وحج ، إلا ولها أثر يظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي، بل إن هذا الأثر يتعدى الفرد إلى المجتمع ، فالإسلام ليس طقوسًا جوفاء لا علاقة لها بالواقع، ولا أثر لها في السلوك ، إذ لا يعقل أن يخرج العابد من عبادته ليغُشّ أو يحتكر ، أو يؤذي جاره ، أو يكذب ، أو يخون ، أو يخلف العهد أو الوعد ، إنما شرعت العبادات في جميع الأديان لترتقي بسلوكيات الإنسان ، وتسمو بأخلاقه.

ففريضة الصلاة التي تربط العبد بربه ، تنهى عن الفحشاء

والمنكر ، حيث يقول الحق سبحانه: {اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُون} [العنكبوت:٤٥] ، بل إن قبول الصلاة متوقف على التخلق بأحسن الأخلاق ، وقد أكد رب العزة (سبحانه) هذا المعنى في الحديث القدسي ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم) : (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي ، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي ، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي ، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي ، وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ وَابن السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ ، وَرَحِمَ الْمُصَابَ) (رواه البزار).

فالصلاة إن لم تؤثر في صاحبها وتمنعه عن الفحشاء والمنكر فلا أثر لها ولا ثمرة ، بل إنها قد تكون وبالاً على صاحبها، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا)، وفي

رواية: (مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا) (رواه الطبراني بإسناد صحيح).

وكذلك فريضة الزكاة تعمل على تزكية النفس البشرية، والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق ، فهي طهارة لنفس الغني من البخل والشح والأنانية ، وطهارة لنفس الفقير من الحقد والبغض والحسد ، يقول الحق سبحانه وتعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[التوبة :١٠٣].

كذلك فريضة الصيام ، فرضها الله سبحانه وتعالى على الغني والفقير تهذيبًا للأخلاق والسلوك ، وتحقيقًا لتقوى الله (عز وجل) ، قال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة : ١٨٣] ، فمن خلال الصوم يتعود المسلم على ضبط أخلاقه وغرائزه ، وبذلك يتحقق الهدف الأسمى من الصيام ، أما إذا ترك هذا الهدف الرفيع فسيكون صيامه خاليا من السمو

الروحي ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، فالصوم الحقيقي هو الذي يترك أثرًا طيبًا في سلوك المسلم وأخلاقه ، وهذا ما أكد عليه نبينا (صلى الله عليه وسلم) حين قال: (... وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ...) (رواه البخاري).

وكذلك فريضة الحج ، فمن خلالها يتعلم المسلمُ الفضائل والأخلاق ، ويتدرب على تهذيب السلوك الإنساني ، ويتربى فيها على تقوى الله (عز وجل) ، والطهر ، والعفاف ، والتحكم في غرائز النفس وشهواتها ، والتحلي بمكارم الأخلاق ، ليخرج الحاج من هذه الفريضة وقد تحققت له مضامينها الأخلاقية والسلوكية ؛ لأجل ذلك ربط القرآن الكريم بين أداء الحج واستقامة السلوك الإنساني ، فقال سبحانه :{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ

اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة :١٩٧] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (متفقٌ عَلَيْهِ).

ومن ثمَّ فالعبادات في الإسلام جوهرها الأخلاق ، ولا بد وأن تترك أثرًا إيجابيًّا على الفرد حتى ينعكس على المجتمع، أما إذا لم تؤثر في سلوكيات صاحبها وأخلاقه فتصبح بلا قيمة ولا ثمرة ، إضافة إلى أن سوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ)؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ

خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) (رواه الترمذي).

ولما سئل (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا ، وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ: (هِيَ فِي النَّارِ)، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: (هِيَ فِي الْجَنَّةِ) (رواه أحمد).

وجدير بالذكر أن حسن الخلق هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة ، فعَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنها) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ) (رواه أحمد) ، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ) (رواه الترمذي).

كما أنه يرفع درجة صاحبه حتى يتساوى مع قائم الليل وصائم النهار، فعن عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْها) قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ) (رواه أبو داود).

إضافة إلى أن صاحب الخلق الحسن يحبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويجاوره في الجنة ، فعن جَابِرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: (المُتَكَبِّرُونَ) (رواه الترمذي) .

خصائص الأخلاق في الإسلام:

وإذا كان المصلحون على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم

قد دعـوا إلى التخلـق بـالأخلاق الحسـنة فإن دعـوة الإسـلام للتخلــق بمكــارم الأخــلاق تختلــف عــن دعــوات هــؤلاء المصلحين ، فالأخلاق في الإسلام لها خصائص ومميزات ، منها:

أنها شـاملة واضـحة: فلـم تقتصر علـى جانـب العبـادة فقط بل شملت جميع جوانب الدين والدنيا ، فعن أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (رواه الترمذي).

أنها ثابتة لازمة: لم تحدد بمدة زمنية وينتهي دورها ، بـل هـي ثابتـة باقيـة ببقـاء الـدين إلى أن يـرث الله الأرض ومـن عليهـا ، اسـتمدت ثباتهـا وبقاءهـا مـن الـذكر الحكـيم المحفوظ بحفظ الله ، قال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الْحِجْرِ: ٩].

أنها وسطية : ووسطية الأخلاق في الإسلام تعني أنها الأحسن ، فدائما الخلق الإسلامي ممدوح بين مذمومين ، فالجود مثلا ممدوح توسط بين مذمومين الإسراف والبخل ، والشجاعة ممدوح توسط بين مذمومين التهور والجبن ، وهكذا كل الأخلاق في الإسلام تمتاز بالوسطية.

أنها متنوعة المجالات ولها صور متعددة ، منها:

العلاقة مع الله عز وجل ، وذلك أعلى المجالات وأفضلها ، ويتحقق بتقوى الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له وحده دون سواه ، وحسن التوكل والاعتماد عليه، عن أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اتَّقِ اللَّه حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (رواه الترمذي)..

العلاقة مع الأهل والأقارب ، فينبغي أن يتخلق الإنسان بأخلاق الإسلام مع أهله وأقاربه ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ:

(خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) (رواه ابن ماجه).

العلاقة مع غير المسلم: إن مكارم الأخلاق تشمل كافة المخلوقات، فلا فرق بين مسلم وغيره، إنما الجميع أخوة في الإنسانية، فالحق سبحانه وتعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[الإسراء:٧٠]، ولما قام النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لجنازة مَرَّتْ بِهِ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، قَالَ: (أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟)(رواه البخاري). فينبغي أن يتحلى المسلم بالأخلاق الكريمة مع غير المسلم لإظهار سماحة الدين ووسطيته ، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨].

التعامل مع الحيوان ، فلم تقتصر مكارم الأخلاق على البشر فحسب، بل إن دائرة الأخلاق تشمل الحيوان أيضًا،

فإن الله (عز وجل) أدخل رجلا الجنة بسبب كلب سقاه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ: وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) (رواه البخاري).

وفي المقابل دخلت امرأة النار بسبب هرة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خِشَاشِ الأَرْضِ) (رواه البخاري).

فحسن الخلق مع الحيوان يكون سببًا لدخول الجنة ، والعكس صحيح فإن سوء الخلق معه يكون سببًا لورود النار ـ والعياذ بالله ـ .

فبالأخلاق تحيا الأمم وتنهض وتبقى آثارها خالدة ، وبزوالها تنهار الأمم وتسقط، وتصبح في مؤخرة الأمم ، فكم من حضارات انهارت ، لا بسبب اقتصادها، أو قوتها العسكرية – فحسب–، وإنما بتردي أخلاقها ، ولله درُّ شوقي – رحمه الله– حيث قال:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

الإسلام دين الإنسانية (*)

الإسلام هو دين الإنسانية بأرقى معانيها ، فهو الدين الذي جاء ليعلي قيمة الإنسان بين سائر المخلوقات ، ويتجلى هذا في اهتمام الإسلام بما يحفظ للإنسان كرامته ويسمو بروحه ، كما امتاز الإسلام بين سائر الأديان بالعديد من مظاهر تكريم الإنسان والمحافظة عليه ، ومن ذلك :

(١) **تهيئة الكون لاستقبال الإنسان قبل خلقه** : فقد هيأ الله الكون كله لاستقبال الإنسان ، فرفع السماء وبسط الأرض وأجرى الأنهار وأنبت الزرع والثمار وسخر الشمس والقمر والنجوم ؛ ليهنأ الإنسان وينعم بكل ما هيأه الله له من أسباب الحياة ، قال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

*) د/ محمد عبد الحميد خطاب – باحث بالإدارة العامة للإرشاد الديني .



الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[إبراهيم:٣٢- ٣٤].

(٢) **تكريم الله للإنسان بالنفخ فيه من روحه** : وتلك أعلى مظاهر تكريم الله للإنسان وأعلى مراقي إنسانيته وآدميته وسيادته على هذا الكون بأن نفخ الله فيه الروح وهي من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله رب العالمين ، قال تعالى:{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[ص: ٧١- ٧٢] . وقال تعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً}[الْإِسْرَاء: ٨٥].

وتكريماً لهذه الروح حرم الإسلام القتل بغير حق والاعتداء على النفس البشرية لأنه اعتداء على خلق الله ومخالفة لأمره ، قال تعالى : {...وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ.....}[الأنعام:١٥١] ، كما نهى الإسلام عن

الإفساد في الأرض والبغي بغير الحق وترويع الآمنين ، قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[الأعراف: ٣٣] ، وقال عز وجل:{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيل أَنَّهُ مَنْ قَتَل نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَل النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[المائدة:٣٢] .

كما حرم الإسلام على المسلم أن يقتل أخاه المسلم ، فقال تعالى:{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[النساء: ٩٣] ، وهذه الآيات بما تحويه من تشريعات إنما تهدف إلى الحفاظ على الإنسان باعتباره المخلوق الذي كرمه الله عز وجل ، قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}[الإسراء:٧٠].

(٣) **تعهد الله الإنسانية بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومنها القرآن الكريم**: فقد تعهد الله الإنسانية على مرِّ العصور بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليهتدي الناس إلى صراط الله المستقيم ، وليعلموا شرع الله ومنهاجه الذي يضمن لهم الهداية والإرشاد ، والذي يأخذ بأيديهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، قال تعالى:{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[النساء:١٦٥]، وقال سبحانه:{..وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}[فاطر:٢٤] ، وقال تعالى:{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[الشورى:١٣] .

وقد تضمنت آيات القرآن الكريم ما يحقق الكرامة

للنفس الإنسانية ، والارتقاء بالسلوك الإنساني من خلال ما تضمنته من تشريعات وتوجيهات وحكم ومواعظ وقصص تهدي الإنسان إلي صراط الله المستقيم .

٤) محافظة الإسلام على حقوق الإنسان :

فقد وضع الإسلام من المبادئ والتشريعات ما يضمن الحفاظ على كل الحقوق المادية والمعنوية التي من شأنها الارتقاء بالإنسان وتكريمه، ويتجلى ذلك في المحافظة على الحقوق التي تضمن له الكرامة الإنسانية ، ومنها :

حرية الاعتقاد :

فقد ضمن الإسلام للناس كافّةً حرية الاعتقاد وحرية الاختيار بين الإيمان والكفر ، فلم يكره أحدًا على الدخول فيه ، قال تعالى : {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ...}[البقرة: ٢٥٦] ، وقال سبحانه وتعالى : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩] ، وهذه الآيات وغيرها

كافية في الرد على كل الافتراءات والمفاهيم المغلوطة عن سماحة هذا الدين واحترامه لحرية الإنسان واختياره.

الأخوة الإنسانية

لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى أنهم جميعًا إخوة في الإنسانية ، فهم جميعًا أبناء آدم وحواء ، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات: ١٣]. فقد دلَّت الآية الكريمة على أن الله خلق الناس ليتعارفوا ويتآلفوا ، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى التعايش السلمي بين البشر وقبول المسلم لغيره مهما اختلف الدين، قال تعالى:{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨] .

ونبينا (صلى الله عليه وسلم) حين قدم المدينة وجد بها بعض الطوائف من اليهود فعاملهم (صلى الله عليه وسلم)

أفضل معاملة ، بل إنه (صلى الله عليه وسلم) قد عقد مع اليهود معاهدة للحفاظ على المدينة من شر الغاصبين باعتبارها الوطن الذي يعيش فيه الجميع ، ومما جاء فيها : (أنه من تبع المسلمين من اليهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ، وما جرى مع يهود بنى عوف يجرى مع بقية قبائل الأنصار) ، وتعد هذه المعاهدة أول دستور مدني في التاريخ حافظ على معاني المواطنة ، والأخوة الإنسانية.

كذلك نجد في استقباله (صلى الله عليه وسلم) لوفد نصارى نجران في مسجده ، وإكرامه (صلى الله عليه وسلم) لهم دلالة واضحة على قبول الآخر واحترام معتقده والتعايش السلمي معه وهذا جانب عظيم من سماحة الإسلام ونبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم).



مراعاة المشاعر الإنسانية :

فقد راعى الإسلام المشاعر الإنسانية والوفاء لصاحب المعروف وإن اختلف الدين والمعتقد ، فهذه أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) قدمت عليها أمها وهي راغبة في أن تصلها، فاستأذنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في صلتها ، حيث قالت: قَدِمَت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم فاستفتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت يا رسول الله ، قدمت عليَّ أمي وهي راغبة أفأصل أمي ؟ قال : (نعم صلي أمك) (متفق عليه).

كذلك راعى الإسلام مشاعر الأمومة عند المرأة فأوجد لها حق حضانة الطفل عند طلاقها وهذا واضح من قوله(صلى الله عليه وسلم) للمرأة التي جاءت تسأله عن ذلك فقال: (أنت أحق به ما لم تنكحي) ، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً ، وَثَدْيِي لَهُ

سِقَاءً ، وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءً ، وَإِنَّ أَبَاهُ طَلَّقَنِي ، وَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنِّي ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي) (رواه أبو داود) .

كذلك أمر الإسلام أتباعه بمراعاة حق الجوار وإكرام الضيف ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وترك الشماتة بالأعداء ، وكلها أمور تحث على مراعاة المشاعر الإنسانية ومكارم الأخلاق التي دعا إليها رسول الإنسانية (صلى الله عليه وسلم) الذي قال عن نفسه : (إنما بُعثتُ لأتَممَ مَكارِمَ الأخلاق) (رواه البخاري في الأدب المفرد).

المحافظة على حرمة الإنسان حيًّا وميتًا :

فقد بينت الشريعة أن جسد الإنسان أمانةٌ لديهِ من الله تعالى، ومطلوب من الإنسان أن يحافظ عليها ، مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا}[الإسراء: ٣٦] ، كذلك راعت الشريعة الإسلامية حرمة جسد الإنسان بعد مماته فحرَّمت العبث به بعد وفاة

صاحبه ونهت عن التمثيل بجثث الموتى ، ولو كانوا غير مسلمين ، في إشارة إلى إعلاء قيمة الإنسان ومراعاة احترام آدميته حيًّا وميتًا ، فحرمة الميت بعد موته باقية كما كانت في حياته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (كسر عظم الميت ككسر ه حيًّا) (سنن أبي داود) ، وعلى هذا فلا يجوز التمثيل بجثة الميت أو التعرض لها بأي نوع من أنواع الأذى .

وهناك الكثير من الأمثلة والنماذج التي تدل على أن الإسلام دين الإنسانية ، جاء ليرتقي بالإنسان جسدًا وروحًا ، ويلبي كل متطلباته وفق نظام محكم ودقيق يتسم بالفضائل وينأى عن الرذائل ، وهذا ما يؤيده الواقع في كل زمان ومكان من أن القيم الإسلامية الرفيعة إنما هي القوى الذاتية والدافعة لقبول هذا الدين ؛ لأنه الدين الذي يوافق فطرة الإنسان النقية ويتفق مع عقله الراجح ويغذي مطالب الروح ويسمو بالإنسان إلى مراقي العلا والفلاح .

الإسلام دين التسامح (*)

لا شك أن بناء الأمم والحضارات يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالبناء الأخلاقي وكذلك انهيار أي أمة وأية حضارة فإنه يرتبط أيضًا ارتباطًا وثيقًا بالانهيار الأخلاقي ، ولقد جاء الإسلام برسالة سامية ، تدعو إلى الأخلاق والقِيَم وتؤسس لمجتمع نقي مترابط ، يتسم بنفوس زكية، وقلوب تقية ، وفطرة نقيّة ، وتؤصل هذه الرسالة قيم الحب والرحمة والألفة وفقه التعايش وقبول الآخر ، ومن هذه الأخلاق الجامعة (التسامح) .

وبالتأمل في هذا الخُلُق الجامع ، نجد أن له معانيَ وفيرة ؛ فهو يجمع بين ثناياه مجموعة من الأخلاق العظيمة ، مثل: قبول الآخر ، وسعة الصدر ، والعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ ، وعدم الغضب ، واللين ، والرحمة ، والتعاطف،

---

*) د/ أسامة فخري الجندي- باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

وتحقيق ثقافة الاختلاف ، وفقه الحوار ، والسلام ، والصفاء ، وغير ذلك مما يحمله التسامح من معانٍ أخلاقية رائعة.

ولقد أراد الإسلامُ تنميةَ روح الألفة والمودة ، ونبذ الصراعات والخلافات وتنقية الصدور وسلامتها من الأحقاد والبغض والكراهية ، وأداة تحقيق ذلك: التخلق بالتسامح ؛ لما له من دور فاعل في الأمن الاجتماعي وصيانة النفس الإنسانية عن أي أذى (فكري أو مادي أو معنوي أو نفسي) ، فبالتسامح تتحقق الألفة لا الفرقة ، وبالتسامح تتحقق ثقافة الائتلاف لا ثقافة الاختلاف ، وبالتسامح تتحقق ثقافة التدبير لا التبرير ، وبالتسامح تتحقق ثقافة التيسير لا التشديد ، وبالتسامح تتحقق ثقافة التدافع لا الصراع ، وبالتسامح تتحقق قيم الحب والاحترام لا قيم الكراهية والاحتدام ، وبالتسامح تتعمق قيم الرحمة لا القسوة .

فبالتسامح تسمو النفس إلى مرتبة أخلاقية رائعة تحقق تلك المعاني السابقة مع غيرها ، فما أطيبه من خلق كريم ،

إذا التزمت به النفوس انعكس ذلك على المجتمع ، فيصبح مجتمعًا نقيًّا صافيًا مترابطًا تسوده قيم الوحدة بكل معانيها.

وقد جعل الإسلامُ التسامحَ من المبادئ الرئيسة له ؛ إذ إنه يعبّر عن مقاصد النبوة ؛حيث قال الله تعالى:{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[الأنبياء :١٠٧] ، فرسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) كلها رحمة ولين .

ومن صور التسامح في الإسلام : (التعايش مع أصحاب الأديان الأخرى وإكرامهم والبر بهم) ، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨]، وقال أيضًا :{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة :٨٣]، فهذه الآيات مع غيرها تؤكد التسامح من حيث التعايش السلمي مع الآخر ، والمعاملة بالمعروف معهم ؛ مما يؤكد نفي التعصب والنظرة الدونية للغير .

وانظر جيدًا إلى هذا التطبيق العملي في عصر النبوة

وقبوله للآخر واستقباله لوفود نصارى نجران بتسامح رائع ، بل وأكرمهم (صلى الله عليه وسلم) بنفسه وقال : (إنَّهمْ كَانوا لأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ) (رواه البيهقي في دلائل النبوة). وهكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مترجِمًا حقيقيًّا لما جاء في النص القرآني .

وكذلك قَبِل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هديةً من المقوقس عظيم القبط ، وهي السيدة مارية التي أنجبت إبراهيمَ ولده (صلى الله عليه وسلم) ، ثمَّ وقف فقال (صلى الله عليه وسلم): (اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا).

ومن صور التسامح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما دخل مكة فاتحًا قَالَ : (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ اهْتِفْ بِالْأَنْصَارِ). قَالَ: (اسْلُكُوا هَذَا الطَّرِيقَ فَلَا يُشْرِفَنَّ لَكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَمْتُمُوهُ). فَنَادَى مُنَادٍ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ دَخَلَ دَارًا فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ). وَعَمَدَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ فَدَخَلُوا الْكَعْبَةَ فَغُصَّ بِهِمْ ،

وَطَافَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِجَنْبَيِ الْبَابِ فَخَرَجُوا فَبَايَعُوا النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى الْإِسْلَامِ ... فَقَالَ : (مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟) قَالُوا: نَقُولُ: ابْنُ أَخٍ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيمٌ رَحِيمٌ، قَالَ: وَقَالُوا ذَلِكَ ثَلَاثًا ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ:{لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٩٢]. قَالَ: فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ) (رواه البيهقي).

إن الإسلام جعل التسامح أصلاً في إرساء قيم الحب والعفو والترابط ، وأكّد على أن طريق التسامح هو مقابلة الإساءة بالإحسان ، ولننظر بعمق حين أغلظ الأعرابي على النبي (صلى الله عليه وسلم) وجذبه جذبة شديدة من ردائه، كيف قابل النبي هذه الغلظة في القول والفعل من الأعرابي بالتبسم والتسامح ؟ معلّمًا أمته كيف يكون التعامل مع الآخر ، وكيف نتعاون معه في أن نجتث منه حظ النفس

والشيطان ؟ وكيف نقوده إلى طريق المصافاة والمودة ، وكيف ندفع إساءة من أساء إلينا بالإحسان إليه ؟ كما قال ربنا جل وعلا :{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[فصلت :٣٤] ، وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: (كنت أمشي مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعليه برد نجراني (عباءة) غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه جبذة " أي جذبه جذبة قوية " حتى رأيت صفح عنق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أثّرت بها حاشية البرد من شدة جبذته (تركت الجذبة علامة على عنق الرسول) ، فقال: يا محمد أعطني من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء) (رواه أحمد)، وهكذا كان تسامح النبي (صلى الله عليه وسلم).

ولننظر إلى هذا التسامح العميق من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع سيد أهل اليمامة (ثمامة بن أثُال) الذي

كان يتوعّد بقتل النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكان يسارع إلى كل ما من شأنه أن يؤذي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقد أسره المسلمون وأتوا به إلى المدينة وشدّوه إلى ساريةٍ من سواري المسجد ، ولما خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد، وهمَّ بالدخول فيه ، رأى ثمامة مربوطاً في السارية فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، ولننظر هنا إلى قول النبيّ (صلى الله علي وسلم) لهذا الحاقد الذي أراد قتله (صلى الله عليه وسلم) حينما رأى ثمامة بن أثال مربوطاً إلى ساريةٍ من سواري المسجد، قال: أحسنوا إسارَه، أيْ: أحسنوا إلى هذا الأسير، بل وأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأن يؤتى الطعام من بيته لثمامة ، ثم يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال ثمامة : عندي يا محمد خير، فإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم علي بالعفو تنعم على شاكر، وإن كنت



تريد المال فسَلْ تُعطَ منه ما شئت) ثم جاءه ثانيةً ، قال: (ما عندك يا ثمامة؟ – مرة ثانية – قال: ليس عندي إلا ما قُلت لك من قبل) فتركه النبيّ (صلى الله عليه وسلم) حتى إذا كان في اليوم التالي، جاءه فقال: (ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال، أعطيتك منه ما تشاء ، فالتفت النبيّ (صلى الله عليه وسلم) إلى أصحابه، وقال: أطلِقوا ثمامة ، وفكُّوا وثاقه وأطلقوه) (متفق عليه) ، ولعل هذا هو الصفح الجميل الذي أمر به الحق سبحانه بقوله : {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}[الحجر: ٨٥] .

ثم غادر ثمامة مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومضى حتى إذا بلغ نخلاً من حواشي المدينة، وعندها اغتسل ، وعاد إلى النبي ليبايعه ويدخل الإسلام ، وما كان هذا إلا بالتسامح والرحمة .

وقد سار الصحابة (رضي الله عنهم) على منهج رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) ، فهذا هو عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يضرب لنا أنموذجًا عمليًّا في التسامح ، مطبقًا ما تعلمه على يد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فلما جاء عيينة بن حصن إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو من هو في مهابته ، فيقول: (يا ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر (رضي الله عنه) . فقال بعض الحضور: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩] ، فوالله ما جاوزها عمر (وكان وقَّافًا عند حدود الله)، ما قال له شيئاً، حتى العتاب ما عاتبه، إنما قرأوا الغضب في وجهه (رضي الله عنه).

وحتى نستطيع أن نحقق قيمة التسامح بيننا ، فلا بد من سلامة الصدور من الأحقاد والكراهية والحسد والبغض وجميع منغصات الحياة لتنعكس معاني الرحمة بين الناس ، فيكون الود والرحمة بينهم فتتأسس الأمة على التسامح .



ولقد جعل الإسلام لكل من تخلق بخلق التسامح ثوابًا عظيمًا وفيرًا ؛ لأنه بتسامحه قد كظم غيظه وعفا عمن ظلمه ، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[آل عمران : ١٣٣-١٣٤] .

قال الطِّيبي : (وإنَّما حُمِد الكَظْم ؛ لأنَّه قَهْر للنَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ولذلك مدحهم الله - عز وجل- بقوله: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}[آل عمران: ١٣٤]، ومن نهى النَّفس عن هواه، فإنَّ الجنَّة مأواه والحور العين جزاؤه ، وهذا الثَّناء الجميل، والجزاء الجزيل إذا ترتَّب على مجرَّد كَظْم الغَيْظ، فكيف إذا انضَمَّ العَفو إليه ، أو زاد بالإحسان عليه) (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه ، عن

النَّبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (مَنْ كَظَمَ غَيظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ ، دَعَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أيِّ الحُورِ العِينِ شَاءَ) (رواه أَبو داود) .

فما أطيب الهدي الصالح باتباع أخلاق النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وترجمة تلك الأخلاق إلى واقع مجسد مشاهد .



الإسلام دين الرحمة ([*])

من كمال الدين الإسلامي وجماله أنّه دينُ الرَّحمة بكلّ جوانبها ، فهي صفة أخلاقية انفردت وحدها في القرآن الكريم بالصدارة ، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى، فلقد تكررت الرحمة بمشتقاتها قرابة ثلاثمائة وخمس عشرة مرةً ، إنَّ هذا ليس مصادفة بحال من الأحوال، فكل كلمة وكل حرف في القرآن الكريم نزل بقَدَر ، ومن ثَمَّ فكل وثائق حقوق الإنسان ترجع في مصادرها وأصولها إلى ما أوصى به الإسلام من مبادئ وقيم.

فالإسلام دينُ الرَّحمة بكلّ صورها ، ودينُ الوسطيّة والاعتدال ، دينُ الصلاح والإصلاح ، دينُ الأمن والأمان ، دينُ السلم والسلام ، ونبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، قال الله (عز وجل) : {وَمَا

*) د/ هشام عبدالعزيز علي – باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧]، وكتابه (عز وجل) رحمة للعالمين ، قال عز من قائل: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[الإسراء:٨٢] ، ولو أردنا أن نختار اسما لهذا الدين ووصفا لكان دين الرحمة

والرحمة هي : كلمة جامعة لمكارم الأخلاق ، قال العلامة ابن القيم (رحمه الله) : الرّحمة سبب واصل بين اللّه- عزّ وجلّ- وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم ، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم ، فبينهم وبينه سبب العبوديّة ، وبينه وبينهم سبب الرّحمة.

ونبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أقام دولة الإسلام بالرحمة وكانت الرحمة هي أخص خصائصه ، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧] ، بل لقد بلغت الرحمة درجة متناهية في حق الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى ذكر الله (عز وجل) أنه أولى بالمؤمنين من

أنفسهم قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..} [الأحزاب: ٦] ، وقد ذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم) هذا المعنى صريحًا في قوله : (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ) (متفق عليه).

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) للإنسانية أروع الأمثلة في رحمته بالإنسان والحيوان والنبات والجماد ، فهي رحمة عامة وسعت كل المخلوقات ، حتى الخادم له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن أَنَس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: (خَدَمْتُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ وَلَا لِمَ صَنَعْتَ وَلَا أَلا صَنَعْتَ) (متفق عليه)، وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ

مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) (متفق عليه).

وقد كان للطفل- أيضًا- نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: (قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ) (متفق عليه)، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضَعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَكَانَ يَأْتِيهِ وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيُدَّخَنُ فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ) (رواه مسلم).

ومن الأدلة على شمول الرحمة لكل الخلق أن الله سبحانه جعل من يقوم على اليتامى- بالإنفاق والكفالة والرعاية التي يحتاجون إليها- من المرافقين لرسول الله

(صلى الله عليه وسلم) في الجنة ، فعَنْ سَهْلٍ (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ في الْجَنَّةِ هَكَذَا ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا) (رواه البخاري) ، ويستوي في هذه المنزلة من كفل يتيما من أقاربه أو من غيرهم ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ في الْجَنَّةِ وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) (رواه مسلم).

والحيوان أيضًا له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل حائطًا لرجل من الأنصار ، فإذا به جمل ، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) حنّ وذرفت عيناه فأتاه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ذفراه (عيناه) فسكت ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟) فجاء فتى من الأنصار فقال: لي

يا رسول الله، فقال له: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (رواه أبو داود في سننه)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (عُذِّبَت امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ) (متفق عليه).

إنها الرحمة التي حَثَّنا عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبرنا أن الله تعالى يرحم أصحابها ، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)(سنن الترمذي).

ومن مظاهر الرحمة المتعددة في التشريع الإسلامي أنه رفع الحرج عن الضعفاء والمرضى ، قال تعالى: {لَيْسَ

عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}[الفتح:١٧]. وغير ذلك الكثير والكثير من صور الرحمة في التشريع الإسلامي التي تدل دلالة واضحة على أن الإسلام في مظهره وجوهره هو دين الرحمة واليسر ومراعاة مصالح العباد ، فالتشدد والتطرف والقسوة والغلظة ليسوا من مبادئ الإسلام ، فهي أمور تتنافى جملة وتفصيلا مع تعاليمه السمحة ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُكَرِّهْ عِبَادَةَ اللهِ إِلَى عِبَادِهِ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا يَقْطَعُ سَفَرًا وَلَا يَسْتَبْقِي ظَهْرًا) (البيهقي في شعب الإيمان وأخرجه أحمد مختصرًا وهو حسن بشواهده).

إنها الرحمة المجردة تمامًا عن أي هوى، والتي ليس من ورائها نفعٌ دنيويٌّ، ولا هدفٌ شخصيٌّ، لقد بلغت رحمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأمته حدًّا يفوق كل تصورات

العقل، حتى إن الأمر وصل إلى خوفه عليهم من الغلو في العبادة التي تعني التقرب إلى الله والتبتل إليه، لكنه (صلى الله عليه وسلم) كان يخشى على أمته من المبالغة في الأمر فتفقد الأمة التوازن المطلوب في حياة أفرادها ، فيصل بهم الأمر إلى المَلل والكسل من العبادة التي هي مطلوب الخالق من خلقه ، أو يصل بهم الحد إلى الإرهاق الزائد عن طاقة الإنسان ، لذلك رأيناه (صلى الله عليه وسلم) كثيرًا ما يترك الأعمال المقربة إلى قلبه المحببة إلى نفسه ، لا لشيء إلا لخوفه أن يُفرَض على أمته فيعنتهم ويشق عليهم، تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : (إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ) (متفق عليه) .

ولم تقتصر الرحمة النبوية على حياة المسلمين في المجتمع الإسلامي بل تعدت ذلك إلى آداب الحرب في أوقات القتال لتنبه وتؤكد على طابع الحرب في الإسلام من

حيث كونها حربا دفاعية تهدف إلى البناء لا الهدم ، وإلى التعمير لا التخريب، وتسعى لإتاحة حرية الاختيار ، ويبدو خلق الرحمة النبوية واضحًا في الحرب حيث يوصي النبي (صلى الله عليه وسلم) بقتال المحاربين فقط وعدم قتل الأطفال والشيوخ والعبَّاد الذين تفرغوا للعبادة وعدم حرق الأشجار والممتلكات وانتهاك الأعراض.

بل نجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغضب حين وجد امرأة مقتولة في إحدى الغزوات ، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي غَزَاةٍ، فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ وَالنَّاسُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: (مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، أَدْرِكْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلْ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا) (رواه أحمد وأبو داود وابن حبان).

ومن رحمة الإسلام أنه يأمر أتباعه بأن لا يظلموا غير المسلمين ، فعَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَلَى أُنَاسٍ مِنَ الأَنْبَاطِ بِالشَّامِ قَدْ أُقِيمُوا في الشَّمْسِ

فَقَالَ مَا شَأْنُهُمْ قَالُوا حُبِسُوا في الْجِزْيَةِ. فَقَالَ هِشَامٌ : أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ : (إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ في الدُّنْيَا) (رواه مسلم).

وكذلك حرّم الإسلام الاعتداء على من أمّنه المسلمون من أهل الذمّة والعهود ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (من قتل معاهَدًا لم يرَحْ رائحةَ الجنَّة، وإنَّ ريحَها ليوجد من مسيرةِ أربعين عامًا) (رواه البخاري).

هذه الصور العظيمة للرحمة في حياة النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تعبر عن الرحمة التي أسكنها الله قلبه الشريف (صلى الله عليه وسلم) ، ففرج الله ببركتها الكثير من الهموم عن أصحابها ، وفتح بها أبواب الخير والبركة ، قال تعالى: { فبما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩]، فشريعة الإسلام هي

شريعة الرحمة والتيسير ، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[النساء: ٢٨].

إن الإسلام دين الرحمة والرفق والعطف والتسامح واليسر ، فمن يأخذ بيدك إلى الرحمة والتسامح يأخذ بيدك إلى صحيح الإسلام ، ومن يأخذ بيدك إلى العنف والقتل يأخذك إلى طريق الهلاك ، ذلك أن الله (عز وجل) بعث سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين.

والمتأمل في واقع البشرية يجد أنها في أمس الحاجة للتخلق بهذه الصفة الجليلة وهذا الخلق الجليل ، وإحياء هذه القيمة الغالية التي تدل على ثقافة وتحضر الأمم وتقدمها، فمجتمع لا يعرف الرحمة في قوانينه وتعاملاته مع البشرية والإنسانية هو مجتمع متخلف وإن ادعى التحضر والتقدم والرقي.

الإسلام دين اليسر (*)

ديننا دين اليسر والسماحة ، دين الحلم والعفو ، دين السهولة والمودة ، دين الفضل والكرم ، دين الفطرة الإنسانية السليمة ، دين تتقبله النفس البشرية دون تكلف أو عنت أو مشقة ، ومن خصائص هذا الدين أنه يتصف باليسر في كل شئون الحياة ، واليسر في الشريعة الإسلامية معناه: تطبيق أحكام الإسلام من غير تشدد أو غلو أو شطط ، فلا يدعو إلى تحريم حلال ، ولا تحليل حرام .

إن هذا الدين جاء يخاطب الناس كافة ، بجميع أعراقهم وأطيافهم ومذاهبهم في كل بقعة في العالم ، ويتناسب مع أحوال الناس مع اختلاف طبقاتهم ، فجاء يحمل في أحكامه وتشريعاته التيسير والسعة ، فلا تخلو فريضة من الفرائض إلا وجعل فيها من اليسر ما يجعل الإنسان قادرًا

*) د/ أشرف فهمي محمود موسى- مدير عام بوزارة الأوقاف.



على تطبيقها ، لأنه (عز وجل) لا يكلف النفس فوق طاقتها أبدًا قال تعالى : {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة:٢٨٦] .

إن اليسر هو مراد الله لعباده في هذه الأمة ، ففي دلالة واضحة ليس فيها احتمالات يقول الله عز وجل: { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]، وفيها يقول المفسرون : أي: يريد التسهيل ، وهي إباحة الفطر للمسافر والمريض ، ولا يريد بكم العسر أي وقد نفى عنكم الحرج في أمور الدين ، لذلك رفع الله (عز وجل) عن الأمة الإسلامية الكثير من التكاليف الشاقة والضيق والحرج قال تعالى : {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] ، وقال أيضًا : {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق:٧]، والله يريد بالأمة التخفيف واليسر ، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] ، أي: يريد الله أن يخفف عنكم في التكاليف عمومًا ، ويقول الألوسي (رحمه الله) :

لقد خفف الله تعالى عن هذه الأمة مالم يخفف عن غيرها.

وقد وُصف الدين الإسلامي بأنه دين الحنيفية السمحة لما فيه من السهولة واليسر في كافة الأمور ، فعن أبي أمامة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إِنَّمَا بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) (رواه الإمام أحمد) ، وقد صرّح نبينا (صلى الله عليه وسلم) بأن ديننا دين اليسر لا التشدد ، حيث قال: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (رواه البخاري) .

وقد نبهنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى هدف جليل من بعثته ، حيث قال: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا) (رواه الإمام أحمد) ، وقد كانت وصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا معاذ وأبي موسى الأشعري (رضي الله عنهما) بالتيسير حين بعثهما إلى اليمن فخاطبهما بالأمر



الصريح قائلاً : (يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا؛ وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا) (متفق عليه)، ولم يكتف بالأمر الصريح بل أكده بالنهي عن التعسير ليكون أمرًا لا لبس فيه.

اليسر والسماحة في العبادات ، ومن أهم مظاهر التيسير في العبادات : الرخصة التي منحها لعباده ، فقد أباحها ليخفف عنهم مشقة بعض التكاليف ، حيث أباح الفطر للمسافر والمريض ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ) (رواه الإمام أحمد). والرخصة بالنسبة للمرأة في الحيض والنفاس ، وهما عذران لترك الصلاة والصيام ومسّ المصحف .

ومن اليسر في هذا الدين أن المسلم إذا لم يجد ماء ليتوضأ به أو كان به مرض أو جرح لا يستطيع أن يتوضأ بالماء ، رخص له أن يتيمم بالتراب ، تيسيرًا له ، لقوله تعالى : {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٦]، وكذلك شُرع الجمع والقصر في الصلاة أثناء السفر أو المطر أو المرض إذا قلّ الماء ، أو البرد، أو الخوف من الطريق ، أو زيادة المرض ، فأجاز له الجمع والقصر ، حيث قصرت الصلوات الرباعية إلى ركعتين فقط .

ومن صور السماحة في الحج أنه لا يجب إلا على من يملك الزاد والراحلة ، لقوله تعالى : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧].

ومن التيسير في الحج فرضه في العمر مرة واحدة ، رفعًا للمشقة ، لأنه يصعب على المسلم أن يؤديه كل عام ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا) ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ ، حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا ، فَقَالَ



رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ) ثُمَّ قَالَ: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بشيء فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شيء فَدَعُوهُ) (رواه مسلم).

ومن يسر الإسلام أنه نهى عن الغلو في العبادات ، كما حدث مع الرهط الذين ذهبوا إلى بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أنس (رضي الله عنه) : أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ عَمَلِهِ في السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ آكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ. فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّى أُصَلِّى وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّى) (متفق عليه).

اليسر والسماحة في المعاملات ، فعن جابر (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى) (رواه البخاري)، وقد ذكر البخاري (رحمه الله) في باب السهولة والسماحة في البيع قائلا : ومن طلب حقًا فليطلبه في عفاف .

ومن اليسر والسماحة إمهال المعسر إلى حين ميسرة ، استجابة لأمر الله عز وجل حيث قال : {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢٨٠] ، وقد رغب الإسلام في هذا العمل الفاضل ووعد صاحبه بالخير، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ) (رواه مسلم).

ومن صور التيسير والسماحة في المعاملات أنه حرم احتكار الطعام والسلع واحتجازها ليرتفع ثمنها فيوقع الضرر بالناس ، فالمحتكر يقع في خطيئة كما قال النبي (صلى الله

عليه وسلم) : (لَا يحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ) (رواه مسلم).

وفي البيع أجاز الإسلام للمتبايعين الخيار رفعا للحرج الذي قد يقع فيه أحدهما ، لأنه ربما يحصل ضرر كبير إذا تم هذا العقد ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) (رواه البخاري) ، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) ينزل إلى الأسواق فيرشد الناس إلى الأمانة، وينهاهم عن الكذب والتدليس والخداع والغش في المعاملات .

اليسر والسماحة مع غير المسلمين ، فقد أكد على حسن معاملة غير المسلمين وبرهم في القرآن الكريم ، فقال الله عز وجل: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨] ، وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (ألا مَن ظَلَم مُعاهِداً أو انتَقصَهُ أو

كلَّفَهُ فوقَ طاقَتِه أو أخَذ منهُ شيئاً بِغيرِ طِيبِ نَفسٍ فأنا حَجِيجُهُ يوم القيامةِ) (رواه أبو داود).

وها هو (عمر بن الخطاب) (رضي الله عنه) حينما فتح بيت المقدس، ووقَّعَ وثيقة بينه وبين سكان البلدة كتب (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضارّ أحد منهم) ، هذا هو الضمان الذى مُنح لسكان " إيلياء" فهو يُؤَمنُهم على أشخاصهم، وبضائعهم، وكنائسهم، وصلبانهم ، وعلى عبادتهم بصفة عامة ، ولن تُصادر كنائسهم أو تُدمر ، ولن تُفرض عليهم أي قيود في موضوع الدين، ولن يتعرض أحد منهم للمضايقة .

إن اليسر والسـماحة في الإسـلام منهج عظيم ، يُعنى

بالحياة من جميع جوانبها ، وله آثار كريمة تعود على الفرد والمجتمع ، منها : إبعاد السآمة والملل والضجر ، وقد أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك بقوله : (خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا) (متفق عليه) ، فيقبل المسلم علي العبادة بحبٍّ ، فلا يوقفه عنها ملل أو سأم في أدائها، وفي هذا يقول الشاطبي (رحمه الله) : "إن الله وضع هذه الشريعة المباركة حنيفية سمحة سهلة ،حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحببها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم" .

ومنها: ضمان الاستمرار والمداومة : فالمداومة على الأعمال الصالحة مقصد جليل من مقاصد الشريعة .

الإسلام دين الفطرة (*)

من أهم خصائص ومميزات الدين الإسلامي الحنيف أنه دين الفطرة السوية التي فطر الله (عز وجل) الناس عليها، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم:٣٠] ، وفي الحديث الشريف ما يؤكد على ولادة الإنسان على الفطرة السوية يَقُولُ رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ...) (رواه مسلم)

والمراد بفطرة الله (تعالى) هي التوحيد ، فإن الله (عز وجل) خلق البشر موحدين مقرين بوجود الله (عز وجل) وهم في عالم الذر، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

*) د/ ياسر معروف خليل – باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}[الأعراف: ١٧٢– ١٧٣].

ومعنى أن الإسلام دين الفطرة : أن شرائعه وشعائره لا تتعارض ولا تصطدم مع المنطق القويم والعقل السليم والفطر المستقيمة– ولو لم يكن أصحابها مسلمين– ، والسبب في عدم وجود تعارض بين الدين والعقل السليم هو أن صاحب الشرع وخالق العقل واحد ، وهو الله رب العالمين ، ولا أدل على كون الإسلام دين الفطرة من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل المعيار في التعرف على الإثم والخير هو انشراح الصدر أو انقباضه، فما انشرحت له النفس ولم يكره صاحبه أن يطلع عليه الناس دل ذلك على حسنه ، وما ترددت فيه وكره صاحبه اطلاع الناس عليه دل على قبحه ، فعَنْ نَوَّاس بْنِ سَمعَان الْأَنْصَارِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَأَلَ رسولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَن البِّر والإِثْمِ؟ قَالَ: (البرُّ: حُسْنُ

الخُلُق، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وكَرِهتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَليهِ النَّاسَ) (رواه البخاري في الأدب المفرد).

وقد وجه الإسلام المسلمين إلى ما يصلحهم وينفعهم، وينسجم مع فطرتهم البشرية ، فجميع تشريعاته تأمر بكل ما ينفع المسلم في دينه ودنياه ، وتنهى المسلم عن كل أمر يودي بالمسلم إلى الهلكة في دينه أو دنياه .

ولما كانت العرب أمة أمية بعث فيهم رسولا منهم قال تعالي:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الجمعة: ٢] ، ثم بعد هذا التعليم وتلك التزكية يبعثون للعالم كله داعين إلى دين الفطرة في جميع أنحاء المعمورة ، قال تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[آل عمران:١١٠]، فهذه الأمة صاحبة رسالة

عظيمة للناس كافة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بربها ، وتعمل على نشر دين الله (عز وجل) بالتي هي أحسن.

ثم جاء الإسلام بفرائض تتوافق جميعها مع الفطرة التي خلق الله (تعالى) الإنسان والمهمة التي خلق من أجلها، وهي خلافة الله (عز وجل) في الأرض فجاءت تشريعاته توضيحًا لطرقه، ففريضة الصلاة شرع لها من الأحكام ما تُيَسِّر على المسلم أداءها ، فالفلاح في مزرعته، والعامل في مصنعه ، والموظف في مصلحته، والمدرس في مدرسته ، والطبيب في عيادته، والمهندس في موقعه ، والعالم في محرابه ، والكيميائي في معمله، إذا أدرك الجميع الصلاة صلى كل واحد منهم في مكانه ، إن لم يتمكن من الذهاب إلى المسجد ،فأينما أدركته الصلاة فليصل ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنهما) ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: ...

وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، فَلْيُصَلِّ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ) (رواه أحمد) .

كما خففت الصلاة الرباعية ، وأبيح الجمع بين صلاتي الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير في السفر مراعاة لظروف الإنسان ، كما راعى الإسلام حال المسلم في المرض ، فقد لا يستطيع القيام للصلاة ،أو لا يستطيع الجلوس لها ، فيسقط عنه القيام أو الجلوس ، وكذا في الحرب وفي الخوف سنَّ له تشريعات تحافظ على استبقاء حياته، وهذا التيسير والتخفيف من قصر للصلاة والجمع أثناء السفر ، والجلوس في الصلاة أثناء المرض ، يتوافق مع الفطرة السليمة مع مراعاة حال المسلم.

وكذلك الصيام فرضه الله (عز وجل) على القادر المستطيع ويسقط عن المريض مرضًا لا يستطيع معه الصيام ، وشرع له الفدية عند انعدام القدرة على الصيام ، ورخص الفطر للقادر أثناء السفر ، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما)

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ) (رواه ابن ماجه) ، فوصف من لا يستعمل رخصة النبي (صلى الله عليه وسلم) في السفر مع وجود مشقة بالغة بأن هذا العمل ليس من البر، لأن الإسلام رخص له في الفطر قال تعالى:{... فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ...}[البقرة: ١٨٤] ، أما من يأخذ بالعزيمة ويستطيع الصبر على الصيام في السفر ، أو لا يجد مشقة فهو ما عناه القرآن الكريم بقوله : {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:١٨٤] ، كل هذه التيسيرات في الصيام تحفظ على المسلم دينه ونفسه ، وتتوافق مع الفطرة السليمة التي فطر الله (عز وجل) عليها الناس .

وكذلك الحج فرضه الله (عز وجل) على المستطيع فقط ، قال تعالى:{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧] ، كما كانت السمة الغالبة لكل أفعال الحج (افعل ولا

حرج) تيسيرًا للأداء ، بل رخص الله (عز وجل) التوكيل في أداء هذه الفريضة كلها ، أو في بعضها إذا لم يتمكن من بعض المناسك كرمي الجمار ونحوه.

ومن ثم فإن شريعة الإسلام السمحة تقدر أحوال البشر حسب فطرتهم التي خلقوا عليها ، فلا تعنتهم ولا تُكَلِّفُهُم من أمرِهم عُسرًا، بل تَنأى بهم عن المشَقَّة والعُسْر إلى التخفيف واليُسْر، وترفض التكلف والافتعال ، وتعالج شئون الحياة كلها، قال تعالى:{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[البقرة:١٨٥] ، وقال سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}[البقرة: ٢٨٦] ، وقال عز وجل:{..وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ..}[الحج: ٧٨]، وقال سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } [الطلاق: ٧].

وجدير بالذكر أن شريعة الإسلام قد وافقت الفطرة السليمة في كل ما تتطلبه من سرور وفرح ولباسٍ وزينة، ومتع الحياة التي أخرجها الله (عز وجل) للإنسان محاطة بسياج من الأدب الرفيع، قال تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف: ٣١ – ٣٣] فلم يقرر الإسلام للإنسان نوعًا خاصًا من اللباس أو أسلوبًا خاصًا للمعيشة، ما دام قد تطور وترقى بأسلوب فطري سليم ، بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبرنا أن الله (عز وجل) يحب أن يرى أثر نعمه على عباده .

ومن الفطرة التي خُلِقَ عليها الإنسان: رغبته في قضاء شهوته، فشرع له الإسلام النكاح كطريق شرعي صحيح ، ولم يتركه عرضة لارتكاب الفواحش وضياع الأنساب ، بل أرشده إلى تكوين أسرة طاهرة من نسله ، فأحل له الزواج الذي سماه القرآن الكريم سكنًا يجد فيه المودة والرحمة ، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الروم:٢١] ، فالإسلام دين يعترف بما للبشر من أشواقٍ قلبية، وحظوظ نفسية، وطبائع إنسانية، في إطار ما شرع الله (عز وجل).

كما حضَّ الإسلامُ على نظافة الجسد وطهارته وجعلها من الفطرة التي تساعد على سلامته وكمال صحته من الأوبئة والأمراض حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظَافِرِ، وَالِاسْتِحْدَادُ وَالْخِتَانُ) (رواه ابن حبان) ، فوافق

الإسلام الفطرة السوية في تقرير هذه الأمور ونحوها لسلامة وصحة جسد الإنسان .

كما أكد الإسلام على فطرة الإنسان في حبه للقوة وحرصه على ما ينفعه ولكنه حدَّ حدودًا لهذه الفطرة ، فقد بوَّب الإمام مسلم (رحمه الله) بابًا في صحيحه تحت عنوان : (باب الأمر بالقوة وترك العجز) أورد فيه حديثًا عن أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) (الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) (رواه مسلم)، فقد أشاد النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالمؤمن القوي عملا بقوله تعالى : {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..} [الأنفال:٦٠].

ولقد أقر الإسلام كلَّ معروف شهدت الفطرة السوية بحسنه ، وأنكر كذلك كل منكر شهدت الفطرة السوية بقبحه، وهو ما وُصِفَ به النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله تعالى:{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الأعراف:١٥٧] ، ولولا أن هذا الدين يوافق الفطر السوية بعباداته وتشريعاته وأخلاقياته وحضارته ما دخل الناس في دين الله أفواجًا ، ولكن يؤكد دائما بفطرته وعالميته على إصلاحه لكل شئون المجتمع الإنساني جسدًا وروحًا ، وموافقته لطبيعة البشر التي كانت من أهم أسباب انتشاره في أرجاء المعمورة.



الإسلام دين السلام (*)

إن الإسلام دينُ السلم والسلام ، والأمن والأمان، انتشر بالسماحة واليسر ولم يعرف التطرف أو التشدد أو العنف والعدوان على الآخرين، والتاريخ وشهادات المنصفين خير شاهد على ذلك ، فهو دين يأمن الناس فيه على أموالهم وأعراضهم ودمائهم وأنفسهم وكرامتهم الإنسانية.

فالسلام هدف من أهداف الإسلام السامية، لا يقيمه إلا المسلم الحق، ولا يفرِّط فيه إلا صاحب التدين المغشوش ، دعا إليه الإسلام ، حتى ينعم المجتمع بالأمن ، ويتجه أفراده إلى العمل والبناء والإنتاج والرخاء، ويعم التسامح والتعاون والإخاء ، وتزول من حياة الناس أسباب النزاع والشحناء والعداوة والخصام ، ويصبح كل فرد من أفراد المجتمع داعيًا إلى الخير، عاملًا على إرساء قيمه وتوضيح سبله.

---

*) د/ محمد إبراهيم حامد– باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

والسلام شعيرة من شعائر الإسلام ؛ جعله الله تحية المسلمين فيما بينهم لتطبيق وتمكين معاني السلام في أحوال حياتهم وشئون معاشهم ، حيث أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتخذوه تحيةً لهم عند لقائهم وعند فراقهم. قال تعالى: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً}[النور: ٦١].

والسِّلْم والسلام شيءٌ واحد، هو الأمن المنبثق من الإيمان بالله (عز وجل)، والطمأنينة النابعة من اتباع تعاليمه السمحة وأحكامه العادلة التي جعلها الله سبحانه وتعالى شعار دينه ، وضمن من خلالها السكينة لجميع عباده ، قال تعالى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[آل عمران:١٩]، ولم لا ؟ وهو الدين المحقق لمبدأِ السلام لبني الإنسان والذي كفل سلامته وسعادته ليهنأ في الدارين- الدنيا والآخرة- قال تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[المائدة: ٣].

وتأكيداً لتحقيق مبدأ السلام في الأرض بين الناس، فقد كافأ الله الساعين فيه والمطبقين له عمليا بالجنة، وجعل تحيتهم فيها السلام، قال تعالى:{وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}[الأعراف:٤٦]،وقال تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم: ٢٣].

السلام من أسماء الله الحسنى:

والسلام اسمٌ من اسمائه تعالى ، قال سبحانه : {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر:٢٣]، ومعناه: أنه سبحانه وتعالى مصدر السلام والأمن، وكل من ابتغى السلامة عند غيره سبحانه فلن يجدها ، وكان من دعاء النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) عقب كل صلاة : (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) (رواه مسلم) ، ولأن أفعاله فيها معنى

السلامة وفق حكمته وقدرته وإرادته .

وقد تجلى ربنا بالسلام على من يشاء من عباده ، فهذا نوح (عليه السلام) قال له: {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ.}[هود:٤٨]، وقال عن إبراهيم (عليه السلام):{سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الصافات: ١٠٩]، وقال عن موسى وهارون (عليهما السلام) : {سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}[الصافات:١٢٠]، وقال عن إلياس (عليه السلام) : {سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ}[الصافات: ١٣٠]، وقال عن يحيى (عليه السلام): {وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}[مريم: ١٥]. وقال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} [مريم: ٣٣].

السلام في القرآن الكريم:

ولأن السلام هو شعار الإسلام فقد اختاره الله عز وجل وصفاً لليلة القدر التي نزل فيها القرآن الكريم ، قال تعالى:



{سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ} [القدر: ٥] ، وجعله الله (عز وجل) اسما لدار الكرامة والفضل يوم القيامة ، قال تعالى: {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ}[الأنعام: ١٢٧]، وجعله الله تحية أهل الجنة، فقال تعالى:{وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}[الأعراف:٤٦]، وقال جل شأنه:{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} [إِبْرَاهِيمَ: ٢٣] ، وقال سبحانه : {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [الفرقان:٧٥]، وقال عز وجل:{وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[الرَّعْدِ: ٢٣-٢٤].

السلام طريق الجنة:

لا شك أن دخول الجنة غاية من غايات المسلم يحرص عليها ويعمل جاهدا من أجل تحصيلها، ولذلك رسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الطريق إليها وجعل من

أسبابها إفشاء السلام حتى تعم المحبة بين الناس جميعا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شيء إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ) (رواه مسلم)، فإفشاء السلام من شأنه أن يحقق المودة والمحبة بين المسلمين وخاصة إذا اقترنت معه بشاشةُ الوجه وطلاقته ، فيتحقق التحابب الذي هو من تمام الإيمان.

وإفشاء السلام المأمور به شرعًا لا يعني الترديد باللفظ فحسب ، بل معناه أوسع من ذلك ، فهو يعني : نشر ثقافة السلام قولا وفعلا بين كل المخلوقات ، فالمسلم الحق هو من سلم الناس ـ كل الناس على اختلاف دينهم ومذهبهم وجنسياتهم وألوانهم ـ من شرِّ سطوة لسانه وبطش يده ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ

أمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (رواه أحمد).

وهذا هو السلام الحق الذي دعا إليه الإسلام وطبقه الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم) تطبيقًا عمليًّا .

السلام مع الآخر:

لقد ضمن الإسلام لكل من يعيش على أرضه من غير أتباعه الأمن والسلام بمفهومهما الواسع ، فهو آمن على نفسه وولده وأهله وماله وعرضه ومعتقده ، قال تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة: ٢٥٦]،{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [يونس:١١٨]، وقال تعالى:{لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ}[الممتحنة: ٨-٩].

وقد أمر الإسلام أتباعه بالمحافظة على كرامة الآخر ومراعاة مشاعره حتى في موطن الحوار أو الجدل، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[العنكبوت:٤٦].

وجعل أساس العلاقة بين الناس هو التعارف والتآلف ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات: ١٣] .

ولما هاجر نبي السلام (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة وجد مجتمعا متعدد الثقافات والمعتقدات ، فلم يجبرهم على تغيير عقيدتهم ، بل قبل وجود المخالفين له في المعتقد ، وعقد معهم معاهدة للتعايش السلمي ، لهم دينهم وله دينه ، ولأول مرة في التاريخ يتحقق السلم

المجتمعي في رحاب الإسلام .

فرية انتشار الإسلام بالسيف:

لقد ترددت الدعاوى المزيفة التي تزعم أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ؛ رغم أن كلمة (سيف) لم تذكر في القرآن الكريم ولا مرة واحدة ، وحقائق التاريخ تدحض هذه الدعاوى والافتراءات الكاذبة ، فالحروب في الإسلام كانت ردًا للعدوان ودفاعاً عن النفس ، ولم يسجل التاريخ حالة واحدة كان الإسلام فيها هو الباغي على الآخرين.

لقد ظل نبينا محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) بمكَّة ثلاثة عشر عامًا يدْعو بالحكمة والموعظة الحسنة بلا قتال أو إراقة نقطة دم ، وكان (صلَّى الله عليْه وسلَّم) وأصحابُه مستضعفين يعذبون وينكل بهم ليرجعوا عن دينِهم، فما صرفهم هذا عن إسلامهم ، حتى أذن الله تعالى لهم بالهجرة للحفاظ على الدين ، ومع ذلك لم يسلموا من بطش المشركين ، فكان لابد من السماح بالحرب للدفاع عن النفس ، قال تعالى:

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .....}[الحج: ٣٩-٤٠].

بل حتى في ميدان الحربِ والقتالِ؛ قرر الإسلام أنه إذا ألقى العدوُّ السلام وجبَ الكفُّ عنه واعتبارُه مُسلمًا مُتمتِّعًا بالسلام؛ عملاً بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[النساء: ٩٤] .

والإسلام ينظر إلى السلام على أنه الأصل في العلاقات الدولية وفي علاقة الناس بعضهم ببعض، وأن الحروب ضرورة واستثناء.

وعليه فالسلام هو صمام الأمان في المجتمعات، ترتفع به دعائمه ، وتعلو رايته ، ويعيش أبناؤه في أمن واستقرار،

ويزدهر لهم به وجه الحياة فيقوى اقتصادهم ، ويعيشون في سعة من العيش ورغد ورفاهية.

ومن هنا يعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن ننشر السلام بين أولادنا وأهلينا كلما ولجنا البيوت والمنازل، قال تعالى: {فإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [النور: ٦١].

وهكذا كفل لنا التشريع الإسلامي إشاعة السلام في جنبات المجتمع حتى يعم الأمن ويكثر الخير وتفيض البركة .

الإسلام دين الإخلاص (*)

إن الإخلاص سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده ، وهو روحُ الطاعاتِ، وجوهرُ العباداتِ ، فالطاعةُ لا تقبل بدونِهِ جعله الله سبحانه وتعالى شرطا لقبول جميع الأعمال الصالحة ، ليس في العبادات فقط، بل في جميع الأعمال والأقوال.

والإسلام دين يحثّ أتباعه على الإخلاص، والابتعاد عن الرياء والسمعة، وحب النفس والشهرة ، والإخلاص معناه: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله، وبحركاته وسكناته وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو مظهر أو شهرة أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة أو مدح من الخلق.

والإخلاص يكون لله ، وللوطن: **أما الإخلاص لله** ، فلا

*) د/ مسعد أحمد الشايب- باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

نعبد إلا إياه، ولا نتوجه بالعبادة إلا له ، فلا نشرك معه أحدًا فيها، ولا نؤديها سمعة ورياء، ولا فخرا ومباهاة؛ وإنما نبتغي بها وجهه سبحانه وتعالى، فالقرآن يقول:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام: ١٦٢،١٦٣] ، ويقول أيضا:{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}[البينة:٥].

والنبي (صلى الله عليه وسلم) حينما سأله رجل عن الخروج للجهاد بقصد الأجر والذكر (التحدث بشجاعته) قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ) (رواه النسائي)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) أيضا في الحديث القدسي الذي رواه عن ربّ العزة سبحانه وتعالى: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) (رواه مسلم).

أما الإخلاص للوطن ، فلا نعمل إلا لرفعته وتقدمه ، ولا ننتمي إلا إليه، ولا نساعد أحدًا على هزيمته وكسره، ولا نفرط في ذرة رمل من أرضه ونحب أهله، ونسير خلف قيادته ، فالإخلاص للوطن يستلزم حب أرضه، وشعبه وحكومته ، وحب الوطن من كمال الإيمان كما علّمنا (صلى الله عليه وسلم)، فحينما هاجر (صلى الله عليه وسلم) هو وصحابته من مكة إلى المدينة ـ وطنهم الجديد ـ وكانت بها حمى شديدة ، وكانت قلوب الصحابة مازالت معلقة بمكة ـ وطنهم القديم ـ إذ بالنبي (صلى الله عليه وسلم) يدعو ربّه أن يحبب إلى صحابته وطنهم الجديد (المدينة المنورة) ، وأن يبارك لهم في زروعها وثمارها ومكيالها، وأن يصححها ويذهب عنها وباءها ، فيقول: (اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ) (رواه البخاري).

ولم يحثُّ الإسلام على الإخلاص لله وللوطن فحسب ،

بل دعا إلى الإخلاص في كافة مجالات الحياة ، فقد دعا إلى الإخلاص في العمل والإنتاج والبناء ، بمعنى إتقانه وإحسانه، والقرآن يدعو إلى ذلك فيقول:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة:١٠٥]، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ) (رواه أبو يعلى والطبراني).

وقد دعا الإسلام إلى الإخلاص في المحبة والتعامل مع المؤمنين بأن تكون محبتهم ومعاملتهم خالصة لله (عزّ وجلّ) لا لغرض ما ، ولا لمصلحة شخصية ، ومن الإخلاص في المحبة والتعامل النصح لهم ، فعن أبي مسلم الخولاني: قَالَ: (أَتَيْتُ مَسْجِدَ أَهْلِ دِمَشْقَ، فَإِذَا حَلْقَةٌ فِيهَا كُهُولٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَإِذَا شَابٌّ فِيهِمْ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَرَّاقُ الثَّنَايَا كُلَّمَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إِلَى الْفَتَى، فَتًى شَابٌّ، قَالَ: قُلْتُ لِجَلِيسٍ لِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا

مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قَالَ: فَجِئْتُ مِنَ الْعَشِيِّ فَلَمْ يَحْضُرُوا. قَالَ: فَغَدَوْتُ مِنَ الْغَدِ. قَالَ: فَلَمْ يَجِيئُوا فَرُحْتُ فَإِذَا أَنَا بِالشَّابِّ يُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ، فَرَكَعْتُ، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ. قَالَ: فَسَلَّمَ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ: إِنِّي لأُحِبُّكَ فِي اللهِ. قَالَ : فَمَدَّنِي إِلَيْهِ. قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قُلْتُ: إِنِّي لأُحِبُّكَ فِي اللهِ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ. قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى لَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَذَكَرْتُ لَهُ حَدِيثَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ يَقُولُ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ) (رواه أحمد) ويقول: (صلى الله عليه وسلم): (الدِّينُ النَّصِيحَةُ). قلنا: لمن؟. قال: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ) (رواه مسلم).

ودعا الإسلام أتباعه إلى الإخلاص في طلب العلم سواء أكان دينيا أم دنيويا، فلا يتعلمونه للتكبر ولا للتجبر، ولا لطلب المال والجاه والسلطان، ولا ليماروا به العلماء، ولا يتعلمونه لمجادلة السفهاء، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول:(مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يَعْنِي رِيحَهَا (رواه أبو داود)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) أيضا: (مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ) (رواه الترمذي) .

ودعا الإسلام أتباعه إلى الإخلاص في الدعاء، فحثّهم على الدعاء بقلب حاضر خاشع، غير لاهٍ ولا ساهٍ ولا غافل، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ

دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ) (رواه أحمد)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) أيضا: (إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ) (رواه أبو داود وابن ماجه).

ودعا الإسلام إلى الإخلاص في التوكل على الله (عزّ وجلّ) وأنه لن يخيب ظنّ ولا رجاء من توكل عليه، فالنبيّ (صلى الله عليه وسلم) يقول عن ربه: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً). (متفق عليه)، ويقول: (صلى الله عليه وسلم) أيضا: (...أن رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ

التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاَ، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ

الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا) (رواه البخاري).

أما عن علامـــات الإخـــلاص فكثيرة ومتعددة:

❖ منها : عدم انتظار الثناء، والحمد من أحد، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا. قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ:كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ.ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا. قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا.

قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا. قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِى النَّارِ) (رواه مسلم) .

❖ ومنها: إخفاء العبادة والطاعة، فالقرآن يثني على نبي الله زكريا (عليه السلام) لأنه دعا الله في الخفاء والسرّ فقال:{كهيعص*ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}[مريم: ١ـ ٣]، ودعا الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى إخفاء العبادة والطاعة، فقال:{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[الأعراف:٥٥]، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: (...وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ...) (متفق عليه)، وقال أبو التياح: (إِنْ كَانَ الرَّجُلُ يَتَعَبَّدُ عِشْرِينَ سَنَةً وَمَا يَعْلَمُ بِهِ جَارُهُ). (الإخلاص والنية لابن

أبي الدنيا)، وعن عيسى بن مريم (عليه السلام) قال: (إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلْيُدْهِنْ لِحْيَتَهُ، وَلَيَمْسَحْ شَفَتَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ فَيَقُولُوا: لَيْسَ بِصَائِمٍ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُدْنِ عَلَيْهِ سِتْرَ بَابِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْسِمُ الثَّنَاءَ كَمَا يَقْسِمُ الرِّزْقَ، وَإِذَا أَعْطَى أَحَدُكُمْ فَلْيُعْطِ بِيَمِينِهِ، وَلْيُخْفِ مِنْ شِمَالِهِ) (شعب الإيمان).

❖ ومنها: الخوف ووجل القلب من عدم قبول العمل، فالقرآن يقول:{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ*وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المومنون:٥٧ـ٦١]، وسألت السيدة عائشة (رضي الله عنها) النبيّ (صلى الله عليه وسلم) عن تلك الآية فقالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ،

وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ) (رواه الترمذي) .

❖ ومنها: احتقار النفس، وعدم اغترارها بالطاعة والعبادة، فعن ميمون بن مهران قال: (مَا أَقَلَّ أَكْيَاسَ النَّاسِ، لَا يُبْصِرُ الرَّجُلُ أَمْرَهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ، وَإِلَى مَا أُمِرُوا بِهِ، وَإِلَى مَا قَدْ أَكَبُّوا عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَمْثَالُ الْأَبَاعِرِ الَّتِي لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا مَا تَجْعَلُ فِي أَجْوَافِهَا حَتَّى إِذَا أَبْصَرَ غَفْلَتَهُمْ نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَانِي مِنْ شَرِّهِمْ بَعِيرًا وَاحِدًا) (حلية الأولياء وابن المبارك في الزهد).

الإسلام دين الإنتاج (*)

لقد جاء الإسلام ليؤسس الأمة على أن يكون كل عضو منها فاعلًا في مجتمعه منتِجًا لا مستهلكًا فقط ، بل يكون أداةً من أدوات صناعة الجمال في الكون ، فعظّم من شأن العمل وأمر بالكسب الطيب ، والمشاركة في إعمار الأرض وتنميتها بالزراعة والتجارة والصناعة وبناء المصانع ، وإقامة الشركات المنتِجة التي تلبي حاجيات الناس وضرورياتها وفي الوقت نفسه ينبّه بأن لا يكون الإنسان كسولًا راكدًا متسولًا لغير حاجة، وقد نبّه القرآن المجيد على أهمية العمل ، فقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة:١٠٥].

من هنا يؤكد الإسلام على العمل والسعي ، واستثمار الطاقات والقدرات الموهوبة من الله (عز وجل) في طلب

*) د/ أسامة فخري الجندي– باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

الأرزاق بعزةٍ وشرفٍ ، فهذا هو النبي (صلى الله عليه سلم) يُنبّه أمته لذلك ، فيقول : (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ). والمعنى: لأن يذهب الرجل إلى الغابة فيقطع الحطب، ويجمعه ويحمله على ظهره، ثم يأتي السوق فيبيعه، أشرفُ له من أن يمدَّ يده لغيره، سواء أعطاه أو منعه، فإن منعه فقد أهانه، وإن أعطاه فقد منَّ عليه.

إن الإسلام يدعو كل إنسان أن يكون عزيز النفس يُحَقِّقُ كَرامَتَه ويعفّه عن السؤال بالعمل وجلب الأرزاق ، فبدلًا من أن يتكاسل عن العمل ويمدَّ يدَه للناس سائلًا منهم المال فليعمل ليتكسب، فروى البخاري ومسلم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله : (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم) قال الإمام النووي (رحمه الله): معناه: يأتي يوم القيامة ذليلًا ساقطًا، لا وجه له عند الله، وقيل: هو على ظاهره، فيُحشَر

ووجهه عظم لا لحم عليه؛ عقوبةً له، وعلامةً له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه، وهذا فيمن سأل لغير ضرورة سؤالًا منهيًّا عنه وأكثَرَ منه. (مسلم بشرح النووي).

وجدير بالذكر أن الإسلام ينظر إلى العمل نظرة عميقة ويدعو إلى استخراج كنوز الأرض ومعايشها ، يقول تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[الأعراف:١٠] ، وهذا يتطلب سعيًا حقيقيًّا لطلب الأرزاق فيها واستخراج كنوزها ومعادنها ، وصناعة الأدوات والآليات التي تُمَكِّن من ذلك إذا أردنا بناءً اقتصاديًّا حقيقيًّا للأمة .

هكذا كانت وستظل دعوة الإسلام إلى توجيه الطاقات نحو العمل والإنتاج ، وذلك باستخدام الجوارح والمواهب والقدرات والإمكانات التي وهبها الله للإنسان وتوجيهها لطلب الرزق ، ومن ثم القضاء على مظاهر التسوّل والفقر، يقول تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي

مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك:١٥]، وقد أخرج الطبراني عَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

ولننظر إلى صحابة النبي (رضي الله عنهم) وكيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علّمهم بأن يكونوا منتجين نافعين لأمتهم غير كسالى ولا عالة على غيرهم ، فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَنَسٍ (رضى الله عنه) قَالَ قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، فَآخَى النبي (صلى الله عليه وسلم) بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ

وَمَالَهُ ، فَقَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، دُلَّنِي عَلَى السُّوق .

وهكذا يترجم لنا عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) تربّية النبي (صلى الله عليه وسلم) له وللصحابة جميعا على التدافع والعمل والسعي ، وأن يكونوا منتجين نافعين لمجتمعهم ، فيذهب إلى السوق ويبدأ في التجارة وطلب الأرزاق.

ولقد جعل الإسلام لكل من سعى وعمّر الأرض ثوابًا وفيرًا ، فله بكل أرضٍ زَرَعَها صدقةٌ ، ومعلومٌ ثواب الصدقة وما فيها من مداواةٍ للأمراض ، وجعل صاحبها واحدًا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم والسنة المشرفة، فقد أخرج البخاريُ ومسلمُ في صحيحيهما عنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ،

إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ). بل حثَّ الإسلام على العمل حتى آخر نفس في حياة الإنسان ولو أدركته الساعة ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) .

ولفضل هذا العمل وأثره الباقي حتى بعد الممات ، أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن أَبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) .

على أن الإسلام أيضًا يرفض البطالة المقنّعة، لأنها أحد الأسباب الرئيسة لتأخر البلاد اقتصاديًّا، ويحث الإسلام كل عامل في عمله أن يحرّك الأعمال المعطّلة ؛ فتتسارع الأعمال فتُنجَز فيكون هناك إنتاجٌ يكفي حاجيات الناس ،

وربما يكون هناك فائضٌ فيتم تصديره ، وهذا معناه أن يكون هناك دَخْلٌ بالعملة الصعبة ، وبالتالي يكون ذلك دفعًا لعجلة الاقتصاد في الدولة ؛ فيعود بالخير على الجميع ، فهذه رسالة الإسلام لمن أراد أن يمضي قدمًا في زيادة الإنتاج وتوفيره.

ولننظر إلى صفوة الخلق "الأنبياء والرسل" (عليهم السلام) ونتخذ منهم القدوة والأسوة ، فهم أشرف الخلق ومع ذلك كانوا يعملون ويجدّون ويسعون لتحصيل الرزق ، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يعمل بالتجارة عند السيدة خديجة (رضي الله عنها) ، وقبل ذلك كان (صلى الله عليه وسلم) يرعى الغنم ، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ).

وهذا هو سيدنا داود (عليه السلام) علّمه الله صنعة الدروع، فكان يجيد الحِدادةَ، وصناعة الدروع الحربية، قال تعالى:{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ}[الأنبياء:٨٠]، والمراد باللبوس: الدروع. يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهلِ العقول والألباب... وأخبر الله تعالى عنه أيضًا أنه كان يصنع الدروع والخوص، وكان يأكل من عمل يده، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ).

وكان آدمُ (عليه السلام) حَرّاثًا، ونوحُ (عليه السلام) نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوتُ دباغًا، وقيل: سقّاء، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس)، وقد ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (كان زكريا نجارًا) .

وهذا موسى (عليه السلام) عمل في رعي الغنم ثماني سنوات كما ورد في قصته مع ابنتي الرجل الصالح مقابل نكاح إحدى ابنتيه، قال تعالى: { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [القصص :٢٧-٢٨] .

إن الإسلام بما يتسم به من شمولية يدعو إلى التنمية ، والتقدم والنمو، وبناء كيان اقتصادي للأمة ؛ لتواجه به كل الصعاب ، وتلبي من خلاله كل حاجياتها ، لقد قال تعالى : {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[الأعراف :١٠]

والمؤمن الذكي لا يمر مجرد مرور على الآيات القرآنية المشرفة دون أن تتشكل شخصيته بالقرآن ، فينفعل للآيات

ويحولها لخطط عمل وبرامج تطبيقية ، فلا بد من استخراج هذه المعايش التي أخبرنا عنها ربنا جل وعلا ، وهذا يحتاج إلى مجتمع يعمل بكل طاقاته ليستخرج هذه المعايش من الأرض ويحقق وجودها في الواقع ، فيعود نفعها على المجتمع كله . وهذا هو معنى التنمية الاقتصادية التي من خلالها نعلّم أجيالنا مهنا وصناعاتٍ وحرفًا متنوعة ليكونوا أدوات حقيقية للتنمية الاقتصادية، ولن يتأتى ذلك إلا بالعمل وزيادة الإنتاج ؛ لنكون في مكاننا الذي ينبغي أن نكون عليه.

ولا يدعو الإسلام للعمل دون إتقان ، بل إن الأصل هو أن يصاحب الإنسان معه قيمة الإتقان في العمل ؛ وذلك حتى تتمايز الصناعات ، وإلا فمن أين يجأر الناس بالشكوى؟!! إلا بسبب عدم الإتقان، فليمتثل كل عامل قيمة الإتقان ، فكل عامل إن أحسن في صنعته للآخر ، تمايزت وتعاونت الصناعات ولا تتعاند ، ونجد لنا مكانًا بين الصناعات

المتقنة المتقدمة . قال الله تعالى : {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}[القصص:٧٧] ، فلنتخذ الإحسان في كل شيء ؛ لتتأكد قيمة الإتقان في العمل ، وهذا ما أكّده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حين قالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (أخرجه الطبراني).

كما أكد الإسلام على التزام الأمانة في العمل ، فلا غش ولا خداع ولا تزييف ولا حيلة ، فالعبادات ليست شعائرية فقط ، بل العبادات شعائرية وتعاملية ، ولا تصح العبادات الشعائرية بدون التعاملية ، فليكن الإنسان أمينًا ، متقِنًا ، صادقًا ، إلى غير ذلك من الأخلاق المحمودة في العمل ؛ لنجد إنتاجًا قويًّا ثريًّا يدفع عجلة الاقتصاد .

فمن التزم تلك الأخلاق في عمله رفعه الله تعالى درجات عالية وموفورة تصل إلى درجة الشهداء ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ الْمُسْلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ) (أخرجه الترمذي والبيهقي).

هذا هو الإسلام يدعو إلى العمل والإنتاج ، واستثمار الطاقات لبناء كيان اقتصادي قوي للأمة ، فالأصل التكامل وتعليم المهن والصناعات والحرف المختلفة ، وليس في الإسلام مهنةٌ حقيرةٌ إلا ما حُرّم في نصوص الكتاب والسنة.

الإسلام دين الإتقان (*)

الإسلام دين الإتقان ، يدعو إليه ، وبه يتميز ، حيث جعله الإسلام من وجوه القرب إلى الله (عز وجل)، فكل عمل يقوم به المسلم إذا أخلص فيه لله تعالى وأتقنه وقصد به النفع لغيره فهو من باب العبودية والطاعة لله (عز وجل)، واعتبار العمل عبادة وقربى لله تعالى من أعظم الدوافع لبذل الجهد في إتقانه وإخراجه على الوجه الأكمل.

وإذا كان الإتقان من أهم أسباب القرب من الله عز وجل والقبول في الآخرة ، فهو كذلك من أهم أسباب التفوق والتقدم في الدنيا ، ولو نظرنا إلى الواقع لوجدنا أن سبب تراجع المسلمين في كثير من مجالات الحياة هو فقدان روح الإخلاص والإتقان في العمل ، فنحن نملك أكثر ما يملكه الغرب والشرق من خيرات وطاقات وقدرات،

*) د/ عمرو محمد عبدالغفار – باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

ولكنه التفريط في الإتقان وانتشار الفوضى والتكاسل .

وقد فرق كثير من أهل العلم بين الإحسان والإتقان، فالإتقان هو إتمام الأركان على الوجه المطلوب واستفراغ الوسع في إتمام العمل وفق شروط العمل وأصول الأداء، أما الإحسان فيشمل ذلك وزيادة، وهو أن يكون الباعث والدافع الأساسي على هذا الإتقان مراقبة الله عز وجل له، والحياء من نظر الله تعالى إليه ، وطلب الأجر منه ، أما الفوائد الدنيوية فتأتي تبعًا وليست هي الأصل في الإتقان والتجويد، فالإحسان عند المسلم هو الإتقان وزيادة ، أما عند غير المسلم فهو الإتقان وحده.

ومن ثم فإن العَامِل مَطلُوبٌ مِنهُ أن يتقن عَمَله وَأن يحسن فِيهِ قَدرَ طَاقَتِهِ ، ولقد خلق الله (عز وجل) الخلق، وجعل ما على الأرض من زخارف الدنيا من إنسان وحيوان ونبات ومباهج ومفاتن زينة لها ولأهلها، ليبتليهم ويختبرهم، ليظهر المتقن المحسن في عمله من المفسد المسيء

فيجازي المحسن بالثواب ، والمسيء بالعقاب ، قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[الكهف: ٧].

وقد أمر الله (عز وجل) عباده بالعمل في أمور الدنيا والدين، وأعلَمهم أن عملهم سوف يُرى ، قال تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة: ١٠٥]، ففيه تحذير من التقصير وترك الإتقان لأن كون عملهم بمرأى من الله إنما يبعث ذلك على الإتقان والتحسين وذلك تذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات، وهذا ما أكدّه النبي (صلى الله عليه وسلم) في بيان الإحْسَانِ حيث قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ) (متفق عليه).

والإتقان صفة من صفات الله (عز وجل)، وهو سبحانه يحب من خلقه من يتحلى بشيء من صفاته ، قال ابن القيم



في عدة الصابرين: والله تعالى يحبُّ أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته، وظهور آثارها على العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفوٌ يحب أهل العفو، كريمٌ يحب أهل الكرم، عليمٌ يحب أهل العلم، وِتْرٌ يحب الوتر ، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف ، صبورٌ يحب الصابرين، محسن يحب المحسنين، شكورٌ يحب الشاكرين. فإذا كان (سبحانه) يحبُّ المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف.

والإتقان ظاهر في جميع مخلوقات الله (عز وجل)، قال تعالى:{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل:٨٨]، وترى الجبال تظنها واقفة مستقرة، وهي تسير سيرًا حثيثًا كسير السحاب الذي تسيِّره الرياح، وهذا مِن صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقنه. إن الله خبير بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم على ذلك.

وقال تعالى متحدثًا عن إتقانه وإبداعه في خلق الإنسان:{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[السجدة: ٧] فأحسنه وجوّده وأتقنه، وجعله بديعًا في هيئته ووظيفته على حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى، وكذلك الحال في ملكوت السموات والأرض، يتجلى فيها إتقان الله (عز وجل) فلو بحث الباحث المدقق عن خلل فيها ما وجد{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} [الملك: ٣].

وقد أمر الله تعالى عباده بالإحسان في أعمالهم، وأحب ذلك منهم، فقال تعالى:{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة١٩٥]،هذا الإحسان هو الإتقان والإحكام.

وجاءت توجيهات النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) لأمته بالإتقان في كل مناحي الحياة، فعَنْ عَائِشَةَ (رضى الله عنها)، أَنّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ) (سنن البيهقي)، فقوله (عَمَلاً

أَنْ يُتْقِنَهُ) النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فالله (سبحانه وتعالى) يحب المؤمن المتقن في جميع أحواله وأعماله.

كما أن الله تعالى كتب الإحسان في كل شيء ، فأمر به في ذبح البهائم مع أنه قد يبدو عملاً عادياً ينتهي بمجرد موت الحيوان، فعن أَبي يعلى شَدَّاد بن أوسٍ (رضي الله عنه)، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قَالَ:(إنَّ الله كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتْلَة، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَليُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَه، وَلْيُرِح ذَبِيحَتَهُ)(رواه مسلم).يعني أوجب عليكم الإحسان والإتقان في كل شيء من أعمالكم، وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء بحسبه .

وكتب الإحسان والإتقان في تكفين الموتى يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ) أي : ينظفه ويعطره ليختر أنظف الثياب وأجودها وهذا كله من مقتضيات الإتقان ، وفي حفر القبر ودفن

الموتى يأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإتقان ، فعن عاصم بن كليب عن أبيه قال: شَهدت مَعَ أَبِي جَنَازَة شَهِدَهَا رَسُوْلُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا غُلاَمٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ، فَانتُهي بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمْ يمكّن لَهَا ، قَالَ: فَجَعَلَ رَسُوْلُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (سَوّوا لَحْدَ هَذَا).حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّة، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِم فَقَالَ:(أَمَا إِنَّ هَذَا لاَ يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلاَ يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِن) (سنن البيهقي).

وفي العبادات بأنواعها جاء الأمر النبوي الكريم بإتقانها وإتمامها، ففي مشروعية الأذان يتجلى الإتقان والإحسان وأثره في تقديم الكفاءات ، وإقامة الرجل المناسب فيما يناسبه، فقد كان الأذان رُؤيَا لعَبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ الأنصاري ثم وكّل النبي (صلى الله عليه وسلم) بلالاً به لما كان يتمتع به من مقومات تجعل آذانه أتقن وأجود، فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَقُمْ مَعَ بِلالٍ فَأَلْقِ عَلَيهِ

مَا رَأَيتَ؛ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنّهُ أَندَى صَوتًا مِنكَ)(رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).
وفي الوضوء يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ) (رواه مسلم).

وفي الطهارة والنظافة المندوبة يوم الجمعة يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ غُسْلَهُ وَتَطَهَّرَ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ وَمَسَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ وَلَمْ يَلْغُ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى) (متفق عليه)، فترتب الأجر الجزيل والثواب العظيم على الإتقان والإحسان وليس على مطلق العمل.

وفي الصلاة وإتقانها يقول تعالى:{وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} [البقرة :٤٣] فعبر بلفظ الإقامة دون الأداء ؛ لأنه يتضمن الإتقان والإحسان والإتمام، وعلى هذه الإقامة بهذه الصفة يترتب الأجر الجزيل، ويتحصل المسلم على ثمرات الصلاة المرجوة منها بحول الله.

أما حفظ القرآن فإن الإتقان هو مناط التقديم والتفضيل ، فكلما كان المسلم متقناً في هذا الباب كان أعلى مقاماً، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) (متفق عليه).

أما الإتقان في الأعمال الدنيوية فهو ظاهر في ثنايا النصوص الشرعية التي اهتمت بعمارة الأرض والسعي فيها وطلب الخير من بين جنباتها، فالإتقان في الإسلام ليس خاصًّا بالشعائر التعبدية، ولا بالعلوم الشرعية، وإنما أيضاً يمتد ليشمل الأعمال والعلوم الدنيوية، لأن الدين بها يقوم، وعليها يؤسس.

ومن مجالات الإتقان الدنيوية: الإتقان في البناء، وقد ذكر الله (عز وجل) أعظم بناء على وجه الأرض (سد يأجوج ومأجوج)،وكيف أنه كان في تمام الغاية من الإحكام والإتقان الذي ترتب عليه حفظ البشرية من ويلات يأجوج

ومأجوج، قال تعالي: { آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}[الكهف: ٩٦]، {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} قطع الحديد ، ثم اجعلوا بعضها فوق بعض{حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} بين الجبلين {قَالَ انْفُخُوا} وأوقدوا النيران وهاتوا المنافخ ، حتى إذا جعله ناراً لتصهر هذه القطع المنفصلة، فتلتحم وتصير قطعة واحدة{قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}أي: النحاس المذاب، لتكون سبيكة من الحديد والنحاس غير قابلة للاختراق، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. فلو قيل ما هو أنفع بنيان في العالم، كان الجواب هو سد ذي القرنين، لأنه لو لم يكن موجوداً لخرجوا على الناس وأفسدوا الدنيا.

ولقد اهتم النبي (صلى الله عليه وسلم) بمسألة الإتقان في بناء المسجد النبوي كما جاء في حديث طلق بن علي (رضي الله عنه) قال: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ عَمَلُهُمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ عَمَلَهُمْ أَخَذْتُ أُحْذِقُ الْمِسْحَاةَ (الفأس) فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ، فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ أَخْذِي الْمِسْحَاةَ وَعَمَلِي، فَقَالَ:(دَعُوا الْحَنَفِيَّ وَالطِّينَ، فَإِنَّهُ أَضْبَطُكُمْ لِلطِّينِ) (رواه ابن حبان).

وجدير بالذكر أن العمل بلا إتقان مردود على صاحبه، فلا أجر له في الدنيا يستحقه على عمله غير المتقن، ولا قبول له عند الله (عز وجل)، فعن أَبي هريرة (رضي الله عنه) في حديثِ المسيء صلاته: أنّه جَاءَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم)، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَالَ: (ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) فَرَجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم)، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ) (متفقٌ عَلَيْهِ).

وجاءت شريعة الإسلام بتضمين غير المتقن ما أفسده ، ذلك ليعلِم المسلمون أن الإتقان حتى في المهن والحِرَف ، وليس فقط في الأعمال والمصنوعات والبناء، فغير المتقن



يضمن ما أتلفه وأفسده بتعديه وجهله المترتب على عدم إتقانه، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ) (رواه أبو داود).وقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الطَّبِيبَ إذَا لَمْ يَتَعَدَّ لَمْ يَضْمَنْ، بِأَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحِذْقِ فِي صَنْعَتِهِ (حواشي تحفة المنهاج بشرح المنهاج). وقال ابن قدامة: وَلَا ضَمَانَ عَلَى حَجَّامٍ، وَلَا خَتَّانٍ، وَلَا مُتَطَبِّبٍ إذَا عُرِفَ مِنْهُمْ حِذْقُ الصَّنْعَةِ، وَلَمْ تَجْنِ أَيْدِيهِمْ (يعني لم يتعدوا) (المغني). أما من لم يعرف بإتقانه فعليه الضمان لما أتلفه بعدم تمكنه من حرفته.

فإذا كان غير المسلم يسعي للإتقان حفاظاً على شروط العمل وأخلاقيات المهنة وثقة العميل، فحري بالمسلم أن يتقن عمله لكل ما سبق ، ومن قبل ذلك لاطلاع الله (عز وجل) عليه ومجازاته على أعماله إن خيراً فخير ، وإن كانت الأخرى فنسأل الله تعالى الستر والعافية .

الإسلام دين الحضارة (*)

الإسلام هو دين الحضارة ، يدعو أتباعه إلى العمل والإنتاج والبناء، والأخذ بأسباب التنمية والرخاء، يقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ) (رواه أحمد)، فالإسلام لا يعرف بطالة ولا كسلا، قال تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥]، ويقول ابن مسعود (رضي الله عنه): (...وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ فَارِغًا، لَيْسَ فِي عَمَلِ آخِرَةٍ، وَلَا دُنْيَا) (الزهد لابن المبارك).

كما أن الإسلام يدعو إلى عمارة الكون، ونفع الإنسانية جمعاء بغض النظر عن معتقداتهم ، وألوانهم، وأجناسهم، فقد سئل النبي (صلى الله عليه وسلم): يا رسول

---

*) د/ مسعد أحمد الشايب- باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة .

الله من أحب الناس إلى الله؟ قال: (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ...) (المعجم الأوسط للطبراني)، فلم يحدد النبي (صلى الله عليه وسلم) جنسا، ولا لونا، ولا دينا.

كما أن الإسلام دعا إلى التعارف والتآلف، وذكر الناس أجمع بأصلهم الواحد. وهذا من أعظم الأدلة على حضارته، قال تعالى:{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات:١٢].

ولقد شهد التاريخ لحضارة الإسلام التي امتدت لما يزيد عن الألف عام ، في وقت كانت أوروبا تموج في غياهب الجهل، وظلمات التخلف، وبالرغم من تأخر المسلمين اليوم ، في ميادين عديدة؛ إلا أن المنصفين من غيرهم لا ينكرون أن حضارة الإسلام قد امتدت لمئات السنين، وكان لها فضل على البشرية جمعاء.

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه : (ولم يكن هناك أحد ليمنح أوروبا ما قبل القرون الوسطى أي اهتمام، أو ليمنح الأحداث التي جرت في العالم خلال تلك العصور أي أهمية أيضا، وأما أن يكون العرب في جوار قريب لها، وأن يكون هذا الشعب رائدًا لغيره من الشعوب في أنحاء الدنيا في غضون سبعمائة وخمسين عاما حاملاً مشعل الثقافة رِدْحًا (زمنا طويلا) جاوز عصر الإغريق الذهبي بضعفيه أكثر من أي شعب آخر .. فهذا أمرٌ مَنْ يعلم به؟ ومَنْ يتحدث عنه؟) (شمس العرب تسطع على الغرب).

وإذا كان مفهوم الحضارة قديما يعنى التقدم والرقي الثقافي والفكري، والتطور المدني والعمراني، والعلمي في العلوم التي تقوم على التجربة والملاحظة فإن الإسلام قد وضع أسس هذا التقدم كالآتي:.

ففي التقدم الثقافي: جاء الإسلام بمجموعة من النظم والقوانين التي تكفل الحقوق السياسية، والاجتماعية

لجميع الطوائف والأجناس والألوان التي تعيش تحت كنفه، لا فرق بين غني وفقير، أو ذكر وأنثى، أو كبير وصغير، أو سيد وخادم ... إلخ في مساواة لا يعرف لها نظير في الحضارات القديمة والحديثة، تلك النظم التي تنظم العلاقة بين الكلّ تحت رايته، وتنظم العلاقة بينهم وبين غيرهم من الأمم الأخرى، بل تنظم لهم علاقتهم بربهم، يقول سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات

:١١ـ١٣]، ويقول أيضا :{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[النساء:٣٦]، ويقول أيضا: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}[الأنعام:٣٨].

كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعثه الحق سبحانه وتعالى ليتمم البناء الأخلاقي الذي جاء به الأنبياء والمرسلون من قبله، وجعل ذلك من وظيفته، فقال في القرآن:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الجمعة:٢]، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ) (رواه أحمد).

أما في التقدم المدني فقد جاء الإسلام بالآتي:

١. أمر أتباعه بالعمل، والإنتاج، والبناء بهدف عمارة

الكون، وإغناء النفس والأهل ، وجعل ذلك أحد المقاصد من خلق الإنسان، قال سبحانه:{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}[هود:٦١]، وقال أيضا:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك:١٥]، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يوضح لأصحابه (رضي الله عنهم) أن العمل والسعي على النفس، والأهل، والأولاد نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله ، حينما مرّ عليهم رجل قويّ، وتعجب الصحابة (رضي الله عنهم) من قوته ونشاطه، وتمنوا أن لو كان ذلك في سبيل الله، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ

رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ). (المعجم الكبير والأوسط للطبراني).

٢. دعا الإسلام إلى تعلم العلوم المدنية التي تقوم على التجربة والملاحظة، فالقرآن يحمل الكثير والكثير من الإشارات العلمية التي تلفت الأنظار إلى تلك العلوم كقوله تعالى:{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت:٥٣]، وكقوله تعالى:{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٨٥]،وكقوله تعالى:{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[الذّاريات:٢٠،٢١]، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) (المعجم الكبير للطبراني).

وقد برع الكثير من أبناء الإسلام في العديد من العلوم



المدنية في مختلف المجالات ، وكان لهم فضل فيها على البشرية كلها: منهم: ابن سينا ت(٤٢٧هـ) حيث ألّف كتاب (القانون في الطب) الذي أصبح مرجعًا أساسًا في الطب لفترات طويلة، وابن النفيس ت (٦٨٧هـ) مكتشف الدورة الدموية قبل ويليام هارفي، وابن خلدون ت (٨٠٨هـ) أول من تكلم عن علم العمران البشري، ويعتبر بذلك مؤسس علم الاجتماع الحديث ، وذلك في كتابه (المقدمة).

أما ابن الهيثم ت (٤٣٠هـ) فيعتبر المؤسس الأول لعلم المناظر والبصريات ومن رواد المنهج العلمي الحديث، والبيروني ت (٤٤٠هـ) هو أول من قال بدوران الأرض حول محورها، وكان رحّالةً وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وجيولوجيًا ورياضيا وفيزيائياً وصيدليًا ومؤرخًا ومترجمًا لثقافات الهند.

تطور معنى الحضارة ومدلولها، وسبق الإسلام بها:

تطور مدلول الحضارة ـ شأنه شأن بقية الأشياء ـ مع

مرور الوقت عن معنى التقدم والرقي الثقافي والفكري ، والتطور المدني والعمراني، والعلمي ، ليأخذ مدلولاً آخر جديدًا واسعًا. فقد أصبحت كلمة حضارة تطلق على كلِّ ما تملكه الشعوب والمجتمعات ، والأمم من تراث وخصائص وإبداعات تتميز بها عن غيرها من المجتمعات، وتقدمه للبشرية كالحضارة المصرية القديمة، والحضارة اليونانية ...الخ.

وقد جاء الإسلام بما يميزه عن غيره من الأمم والمجتمعات الأخرى . وذلك لأنه دين عالمي صالح لكل زمان ومكان وختمت به الرسالات السماوية . كالآتي:.

الدعوة إلى السلم المجتمعي، **والعالمي**، وترسيخ قيمه ومبادئه: فليس من تعاليم الإسلام السلب والنهب، وترويع الآمنين والإغارة عليهم حتى ولو كانوا من غير أهله، ولم يشرع الجهاد إلا دفاعًا عن الأوطان والحرمات والمقدسات، والأعراض أن تنتهك، ولم ينتشر بحد السيف كما يدعون

عليه افتراء، يقول سبحانه وتعالى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠]، ويقول (عزّ وجلّ):{...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج:٤٠].

وأرسى الإسلام قواعد التعامل بسماحة مع الآخرين طالما أنهم لا يؤلبون على أهله شرًا، يقول سبحانه وتعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال:٦١]، ويقول (عزّ وجلّ):{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الممتحنة:٨،٩]، ويقول النبي (صلى

الله عليه وسلم): (أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ) (رواه البخاري)، ويقول أيضا: (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) (رواه مسلم).

كما أن الإسلام حافظ علي روح ومال غير المسلم الذي يعيش مع أهله، وحرم انتقاصه وظلمه، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (رواه البخاري)، ويقول أيضا: (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). (رواه أبو داود).

الموزانة بين مطالب الروح والجسد: فالرهبنة (التخلّي عن أشغال الدُّنيا، وترك ملاذّها، والعزلة عن أهلها) ليست من تعاليم الإسلام ، كما أنه ليس من تكاليفه الانغماس في

الشهوات ، وإنما جاء الإسلام بالموازنة بين مطالب الروح والجسد ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالقرآن يقول:{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:٢٧]،.

ويقول أنس بن مالك (رضي الله عنه): جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم)، يسألون عن عبادة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي (صلى الله عليه وسلم)؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال النبي (صلى الله عليه

وسلم) : (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) (رواه البخاري).

وعندما آخى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنهما) فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (صَدَقَ سَلْمَانُ) (رواه البخاري).



الموزانة بين عمل الدنيا والآخرة : فالعمل والكسب والسعي على الأمور المعيشية الحياتية في الإسلام عبادة، والإسلام لا يريد من أتباعه عمارة المساجد وحسب ؛ بل يريد منهم أيضا عمارة الأرض كعمارة المساجد وأشدّ، يقول سبحانه وتعالى:{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[القصص:٧٧]، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نبي اللَّهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (رواه البخاري).

تحقيق العدالة والمساواة بين جميع الناس: بعكس الحضارات والأمم الأخرى التي قسمت الناس إلى طبقات مجتمعية ، وقامت بتمييز طبقات على حساب طبقات ، بل قامت بالتمييز بين الناس بحسب اللون والعِرق، بل وبحسب النوع أيضًا ، يقول سبحانه وتعالى:{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات:١٣]، ويقول (عزّ وجلّ):{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[النساء:٥٨]، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى...) (رواه أحمد).

الاهتمام بالوقت وقيمته: وهذا مما تميز به الإسلام، ونبه إلي ذلك في القرآن، فقد أقسم الحق سبحانه وتعالى بالعديد من الوحدات الزمانية في خمس سور سميت باسم تلك الوحدات هي: (١) الجمعة. (٢) الفجر. (٣) الليل. (٤) الضحى. (٥) العصر. فهذا دليل على أهمية الزمن، وعلى ضرورة استغلاله الاستغلال الأمثل، فالنبي (صلى الله عليه



وسلم) يقول: (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ) (رواه البخاري)، ويقول أيضا: (لَا تَزُولُ قَدِمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرُهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عَلِمهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟).(المعجم الكبير للطبراني).

الإسلام دين الحـــريـة (*)

إن الحرية مبدأ من المبادئ الأساسية التي دعا إليها الإسلام وعُرف بها منذ بداية حضارته ، وقاسم مشترك بين رسالات السماء ، كما أنها فطرة جُبِلتْ عليها النفس البشرية ، وتميزت بها عن سائر المخلوقات وهي تعني : حق الفرد في الفعل أو الترك ، وقدرته على قبول تصور ما أو رفضه وفق منهج الإسلام بشرط ألّا يضر بالآخرين ، فلا يقصد بها سوء التصرف ، ولا سيئ الأعمال ، وإنما يقصد بها مراعاة الحقوق والواجبات والمحافظة عليها ، فهي منهج كفله الإسلام لسائر البشر ، حرص الإسلام على تطبيقها بشروط تميزها عن غيرها أهمها :

* **أن تقوم الحرية على أسس دينية** خالية من التعصب ، عمادها احترام الأديان ، وعدم الهجوم على

*) د/ رمضان عبدالسميع إبراهيم- باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

الشرائع أو الإساءة إلى المقدسات.

* **أن تقوم على أساس احترام حريات** الآخرين وممتلكاتهم وحمايتها، وارتباطها بالمقدرة العلمية والثقافية في القول والفعل .

* **أن تقوم على احترام الدستور** ، وحماية النظام العام حفاظًا على كيانها.

وللحرية أنواع متعددة بتعدد مجالاتها ، فمنها : الشخصية ، والدينية ، والسياسية ، والاقتصادية وغيرها ، فهي تشمل كل ما يتعلق بحياة الإنسان ، وتهيئ له حياة آمنة مطمئنة تصان من خلالها الحقوق والواجبات .

أولا : الحرية الشخصية : أوجبها الإسلام للناس جميعًا فهي الحرية التي تميز الإنسان عن غيره ، من حيث كونُه موجودًا عاقلاً يصدر أفعاله بإرادته لا بإرادة غيره ، قال تعالى:{بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}[القيامة : ١٤]، طبقها الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في خلافته عندما

قال لعمرو بن العاص (رضي الله عنه) : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟).

وللحرية الشخصية في القرآن والسنة مظاهر عديدة أهمها :

حرية التنقل: وهي أن يكون الإنسان حرًّا في التنقل داخل بلاده وخارجها متى شاء ، مع رعاية الضوابط ، والقوانين السياسية المعتاد عليها حالة التنقل واستيفائها ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}[الملك:١٥] ، ونصت عليها صحيفة المدينة في قوله (صلى الله عليه وسلم) : (... وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم) (مجموعة الوثائق السياسية) ، فقررت هذه الوثيقة حرية الانتقال داخل الدولة ، فلا يُجبر إنسان على ترك مسكنه أو بلده ، وعندما فتح عمرو بن العاص (رضي الله عنه) مصر قرر لأهلها حرية الانتقال داخل بلادهم أو مغادراتها (على أن يخرج من

الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحب المقام) (فتوح مصر وأخبارها)، فالإسلام لا ينفي أحدًا عن وطنه أو يبعده عن سكنه إلا لعقوبة فيها تعدٍ على المجتمع.

حرية القول: فقد شرعها الإسلام وقيدها بعدم الإساءة للآخرين ، فجاءت آيات القرآن الكريم تدعو إلى القول الحسن بحرية كاملة في المجالات الخاصة والعامة مبينة أثره، قال تعالى :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}[الأحزاب:٧٠] ، والقول السديد : هو القول الصدق الذي يراد به إظهار الحق وإقامة العدل والعمل به ، بلا تفرقة بين الناس ترغيبًا في الإسلام وبياناً لسماحته.

وقد يظن بعض الناس أن الحرية التي كفلها الإسلام تبيح لهم إشباع غرائزهم ، حتى ولو كانت على حساب غيرهم، فهذه ليست حرية، وإنما هي إباحية وفوضى تقضي على أمن المجتمع واستقراره وسلامته، وتنشر البغض والكراهية بين الناس، فالقول الذي يشتمل على السوء ،

والسب والأذى لا يحبه الله، قال تعالى:{ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ}[النساء : ١٤٨].

فالحرية في المنظور الإسلامي لا تبيح ارتكاب المنكرات ولا التطلع إلى العورات ، ولا استباحة المحارم ، وإشباع الغرائز والشهوات .

حرية المسكن: كفلها الإسلام للجميع بغض النظر عن العقيدة فأصبح الإنسان حرًّا في اختيار مسكنه واستعماله، أو استبداله متى شاء حسب رغبته ، ومغادرة البلاد أو يعود إليها وفق اللوائح والقوانين.

ولقد جعل الإسلام للبيوت حرمةً وآدابًا يجب أن تصان آناء الليل وأطراف النهار ، قال تعالى:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[النور :٢٧- ٢٨] ، وعن

أبى سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ) (رواه البخاري)، ولم يُشّرع الإسلام عقوبة النفي والإبعاد عن المسكن إلا إذا تعدى الإنسان على حدود الله ، وحارب الله ورسوله ، وأفسد في الأرض، قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}[المائدة : ٣٣].

الحرية الفكرية : وهي الحرية التي يغلب عليها الطابع الفكري في اختيار الإنسان ثقافته ومذهبه الفقهي ، وخضوع الإنسان في أفعاله وأقواله لحكم العقل تنفيذًا لأمر الله (عز وجل) قال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[العنكبوت :٢٠]، وقوله تعالى:{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[يونس: ١٠١] ، فالآيات تدعو إلى إعمال العقل والحس معًا بالتفكر في مخلوقات الله تعالى والنظر

إليها ، وجعلت للعقل منزلة عالية ، وأطلقت له الحرية التي جعلها الإسلام حقاً للناس جميعًا في حدود آداب عامة لا تخالف نصًّا قطعيًّا ، وقد يفهم بعض الناس أن الحرية الفكرية تعني الإساءة إلى الأشخاص أو الدول أو العقائد والشرائع، فليست هذه حرية ، وإنما هي إباحية ، فالإسلام فرَّق بين الحرية والإباحية .

حرية الرأي: شرعها الإسلام وكفلها تحقيقًا لمبدأ التعاون على البر والتقوى ، وتكوين مجتمع متعاون قوامه المشاركة والمساواة وحماية المجتمع ، كما جعلها الإسلام مكملة لسابقتها ـ وهي الحرية الفكرية ـ ومعناها قدرة الفرد على التعبير اللفظي عن آرائه ، وما يدور بذهنه من أفكار بحرية تامة ، فيصبح الإنسان حرًّا في تكوين شخصيته دون خوف من إعلان رأيه ، وما يدور بداخله دون إكراه أو ضغط، وأن يكون قادراً على التصرف في شئونه الخاصة .

فالشريعة الإسلامية أعطت للرأي والفكر مساحة واسعة



من الحريات ، فكفلت للجميع الحرية في إبداء آرائهم في أمور الدنيا، والتعبير عنها وفق ضوابط ثابتة ، كما كفلت لمن تتوافر فيه شروط الاجتهاد أن يجتهد في سائر الأمور .

على أن الإسلام قيد حرية الرأي بعدم إيذاء الآخرين والإضرار بمصالحهم ، وأمن المجتمع ، وأن يكون هناك التزام بالمبادئ والأخلاق الإسلامية .

حرية التعلم : فمع أن الإسلام نصّ علي فرضية التعلم كما قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ) (رواه ابن ماجة).

وميز بين المتعلم وغيره بنفي المساواة بينهما ، كما قال سبحانه:{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }[الزمر : ٩] ، إلا أن الإسلام لم يحدد أنواعًا من العلوم التي يجب أن يتعلمها الإنسان ؛ بل جعل له الحرية في اختيار ما يشاء من العلوم والفنون بما يتناسب

مع قدراته الذهنية والبدنية والمالية، وأن يختار التخصص الذي يتماشى مع عقله وقدرته ، ويتفق مع ميوله ، وأن يكون له الحق في نشر ما تلقاه وتلقينه لغيره بالوسائل المتفقة مع القدرات الذهنية للمتلقي، فكل علم يفيد المجتمع في الدنيا والآخرة دعَا إليه الإسلام.

ومما يدل على حرية التعلم: إلمام بعض المفكرين من المسلمين بالتوراة والإنجيل ودراستها (فالإمام الشافعي كان عالمًا بشروح التوراة والإنجيل ، وكان أهل الذمة يقرأون عليه ويشرح لهم هذين الكتابين شرحًا وافيًا) (وفيات الأعيان).

ثانيًا : الحرية الدينية : التي أعطت للإنسان الحق في اعتناق ما يشاء من الأديان ، وممارسة الشعائر والعبادات دون إجبار أو إكراه ، حرص الإسلام على تطبيقها تحقيقا لكرامة الإنسان .

فالإسلام هو الدين الوحيد الذي علَّم البشرية حرية



التدين بعد أن كانت غائبة عن الأمم السابقة ، ويحكي التاريخ أن القرون الأولى قبل الإسلام قاست الحرمان من هذه الحرية ، وتألمت مرارات الجبروت والإكراه على العقائد .

ولقد أعطى الإسلام لكل إنسان حرية اختيار الدين الذي يعتقده ويؤمن به، دون إكراه أو ضغط، وأساس هذه الحرية قوله تعالى:{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..}[البقرة:٢٥٦]، وقوله تعالى:{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[الكهف: ٢٩].

إن الدين الذي يتخذ القهر والعنف والإكراه وسيلة لإرغام الناس على قبوله لا تطمئن إليه النفوس ولا تقبله القلوب ، وقد أخبر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) أنه ليس بإمكانه إكراه الناس على الإسلام قال تعالى:{ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ }[الغاشية :٢٢]، وبيَّن مهمته (صلى الله عليه وسلم) وحصرها في قوله تعالى:{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ

عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..}[الشورى : ٤٨]، وترك لكل إنسان الحرية في تكوين عقيدته بناء على نظره وتأمله ، وشرع حرية الاعتقاد على أسس ومبادئ سمحة هي أسمي ما يمكن أن يصل إليها تشريع.

وإذا نظرنا إلى التطبيق العملي في الإسلام لحرية العقيدة وجدنا صحيفة المدينة التي أعطى فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) لغير المسلمين حرية الاعتقاد فقال: (لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ) (مجموعة الوثائق السياسية).

وفي عهده (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران أعطاهم حرية الاعتقاد فقال: (..على أن لا تُهْدَمَ لهم بِيعَةُ، ولا يُخْرَج لهم قَسٌ، ولا يُفتَنوا عن دينهم ما لم يُحدِثوا حَدَثاً أو يأكلوا الربا) (رواه أبو داود).

ولم يحدث في التاريخ على مرِّ العصور أن المسلمين

أكرهوا ذميًّا أو غيره على ترك دينه أو أكرهوه على عدم مزاولة شعائره ، وشهد بذلك المنصفون من أهل الكتاب ، يقول البطريق النسطوري" يشوع ياف الثالث": (إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه، وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية بل على العكس يعطفون على ديننا، ويكرمون قسسنا وقديسي الرب ويجودون بالفضل على الكنائس والأديان) (الدعوة إلى الإسلام. توماس أرنولد).

فحرية التدين هي أبرز أنواع الحرية للإنسان ؛ ومن أهم مظاهرها:

حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية : وهذا حق ينبع من حرية الاعتقاد ، فيكون الإنسان حرًّا في ممارسة العبادات الدينية في الأوقات المحددة ، وبالطرق المعترف بها داخل مجتمعه ، وفقًا لديانته دون إكراه أو اضطهاد.

وقد أعطى الإسلام الحرية لغير المسلمين في ممارسة شعائرهم الدينية وطقوس عقائدهم وعباداتهم ، كما أعطاهم الحق في إعداد المعابد ، ودور العبادة لإقامة دينهم، والأدلة على ذلك كثيرة ، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) لم يمنع وفد نصارى نجران من ممارسة شعائر دينهم داخل مسجده ، فذكر ابن إسحاق أنهم لما دخلوا المسجد النبوي دخلوا في تجمل وثياب حسان ، وقد حانت صلاة العصر ، فقاموا يصلون إلى المشرق فأراد أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يمنعوهم، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (دعوهم) (البداية والنهاية).

وكتب (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران كتاب صلح جاء فيه: (ولنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمةُ محمد النبيّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أموالهم ، وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، ولا يُغيَّرُ أسقف من أسقفيته ، ولا

راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهنته) (مجموعة الوثائق السياسية..).

وكما كفل الإسلام الحرية لغير المسلمين في إعلان شعائرهم اشترط أن يراعوا مشاعر المسلمين وحرمة دينهم ، فقد صالح خالد بن الوليد أهل عانات (عَلَى أَنْ لَا يَهْدِمَ لَهُمْ بَيْعَةً وَلا كَنِيسَةً وَعَلَى أَن يَضْرِبُوا نَوَاقِيسَهُمْ فِي أَيِّ سَاعَةٍ شَاءُوا مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إلا فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَعَلَى أَن يُخرجُوا الصلبان فِي أَيَّامِ عِيدِهِمْ) (الخراج لأبي يوسف).

حرية تدوين عقائدهم ومقارنتها بغيرها ، فقد أعطى الإسلام غير المسلمين الحرية في تدوين كل شيء عن عقائدهم ، وما تحويه من أمر ونهي، والمقارنة بينها وبين غيرها بضوابط وأسس أهمها : احترام الأديان ، وعدم الإساءة إليها أو لأي نصٍّ ثابت بها ، أو الاعتراض على نصٍّ ثابت فيها ، أو التهكم أو السخرية قولاً و عملاً، والواقع يؤكد على هذه الحرية ، فهناك ألاف من الكتب غير الإسلامية

سجَّل فيها أصحابها عقائدهم وعباداتهم وعاداتهم.

حرية تطبيق شريعتهم : وفعل ما هو مباح من الأطعمة والأشربة والعادات والتقاليد وكافة الأمور الدينية وما تحويه من أصول وفروع ، خاصة في الأحوال الشخصية من قضايا الزواج والطلاق ، والنفقة وغيرها؛ لأن الإسلام يحترم حرية الإنسان وكرامته .

مقيدات حرية الاعتقاد: وإذا كان الإسلام قد كفل حرية الاعتقاد لأبناء الوطن الواحد ، فقد قيدها بقيود ثابتة ؛ عمادها احترام الأديان ، وعدم الإساءة للعقائد والعبادات والمقدسات ، والتعدي على الحقوق والواجبات والاطلاع على العورات ، وانتهاك الأعراض، فالإسلام قيدها بما يصونها ويحافظ عليها من إساءة الاستعمال ، والهدف من ذلك هو ضمان تطبيق شرع الله تعالى ، وتحقيق أمن المجتمع واستقراره وحماية العقائد والمقدسات والأوطان .

شبهة ادعاء الإكراه على الدخول في الإسلام وغياب الحريات :

يدعي بعض المستشرقين أن الإسلام انتشر بحد السيف ، وهذه الدعوة يكذبها الكتاب والسنة والتاريخ ، فقد أجمع علماء الإسلام على أنه لا يجوز إكراه أحد على الدخول في الإسلام استنادًا لقوله تعالى:{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..}[الكهف:٢٩]، وقوله تعالى:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...}[البقرة :٢٥٦]، ومما يدل على أنه لا إكراه في الدين :

* **شهادة المنصفين من الغرب بأن الإسلام لم ينتشر بحد السيف**، حيث يقول صاحب كتاب " حضارة العرب " وهو يشير إلى سر انتشار الإسلام : (قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ... ولم ينتشر الإسلام بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا ، كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من

الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها... ولم يكن القرآن أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط ... ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليوناً في الوقت الحاضر)، فلو كان هذا الدين انتشر تحت ضغط السيف بالعنف والإجبار لتوقف انتشاره بانتهاء الفتوحات الإسلامية قديمًا، وفي عصر القوة والفضاء حديثًا، لكن الواقع يؤكد على سرعة انتشاره وتوغله في البلاد القوية المسيطرة على العالم، وكثرة المعتنقين له من هذه البلاد دليل على عدم الإكراه في الدين.

* بقاء غير المسلمين على دينهم ، ومعايشة المسلمين لهم، ومشاركتهم للمسلمين في إدارة البلاد، وتولي المناصب القيادية وصناعة القرار وحماية البلاد ، وعدم إكراههم على الإسلام حتى الآن .



* وفي مصر خاصة أثبت التاريخ أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف ، وإنما خَيَّر عمرو بن العاص (رضي الله عنه) الأقباط بعد الفتح بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينهم كما جاء في كتابه للمقوقس قائلا : (ليس بيني وبينكم إلاّ إحدى ثلاث خصال إما الدخول في الإسلام ، وإما الجزية ، وإما الجهاد ؛ حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) (فتوح مصر وأخبارها).

فلو كان غير المسلمين دخلوا الإسلام كما يُزعم تحت ضغط التهديد والإكراه في فترة قويت فيها شوكة المسلمين، وضعفت فيها شوكة غيرهم، فقد جاءت فترات زمنية ضعف فيها الحكم الإسلامي في مواجهة غيره ، فلماذا لم يرتد هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام مرة ثانية إلى ديانتهم التي كانوا عليها .

ثالثًا : **الحرية السياسية** ، وهي أن يمارس أفراد المجتمع حقوقهم السياسية بحرية ، وأن يسهموا في ممارسة

شئون الدولة والحكم ، وأن يكون لهم حق التعبير عن أنفسهم بحرية في اختيار الرئيس دون خوف أو تهديد بأذى، واختيار من ينوب عنه، وهذه الحرية يقررها الإسلام ويقيدها بالتزام الإنسان حدود القيم الإنسانية، فلا يجوز أن يكون الرأي الذي يتبناه الإنسان طعناً في الدين ، أو خروجًا على القيم الإسلامية المتفق عليها ، ولهذه الحرية مظاهر عديدة أهمها :

حرية الانتخابات ، الترشيح ، التصويت في الاستفتاءات ، والحرية السياسية منوطة بغيرها من الحريات (فنور الحرية السياسية ، ونور الحرية الفكرية ينبعان من مشكاة واحدة ، ولن ترى مناضلاً سياسياً صادق الوطنية إلا وهو نصير للحرية الفكرية ، ولن تجد مدافعاً عن الرأي الحر إلا وهو عدو للاستبداد السياسي ، والطغيان الاستعماري) (الأزهر بين السياسة وحرية الفكر).

رابعًا: الحرية الاقتصادية ، وهي أن يمارس الإنسان كافة

مجالات الاقتصاد المشروعة والمباحة في الدولة بحرية، وأن يسهم في بناء الاقتصاد القومي للبلاد بشرط ألاّ يخل باقتصاد غيره . وقد أقرها الإسلام وكفلها لأفراد المجتمع ، وحرص على أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين أفراده على أساس من الحرية ، وحث على الجانب السلوكي في عملية الكسب وأتاح لغير المسلمين المشاركة في الحياة الاقتصادية ، ومزاولة ما يختارون من المهن شأنهم كشأن المسلمين بما كفله لهم من حريات ، بعكس النظم الوضعية التي تطلق للإنسان العنان بدون تقييد ، وإن ترتب على ذلك ضرر بالآخر.

ولهذه الحرية الاقتصادية مظاهر عديدة أقرها الإسلام كحرية التملك ،وحرية التجارة، والصناعة، والعمل. وغيرها. فلكل فرد أن يتملك ما شاء مما أحلته الشريعة الإسلامية من بيع ، وإجارة ورهن وشفعة وقرض ... وغير ذلك ، مما يدل على حرية التصرف في الحياة الاقتصادية.

الإسلام دين التعايش السلمي (*)

لقد نظم الإسلام الحياة بين المسلم وغيره تنظيمًا محكمًا واضحًا فَأَسَّسَ للتعايش السلمي بين مختلفي العقائد والثقافات والتيارات ، ودعا إلى التواصل بينها اجتماعيًا ، واقتصاديًّا ، وسياسيًّا ، وثقافيًّا.

والمقصود بالتعايش السلمي: التفاعل الإيجابي بين مختلف العقائد والثقافات والتيارات ، والتحام كل منها بالآخر في الرخاء والشدة، واليسر والعسر ، وفي جميع مجالات الحياة ، والعيش معًا وفق منهج الإسلام مع رعاية جميع الحقوق والواجبات الدينية والمدنية رعاية تامة، ورعاية المصالح المشتركة بينها ، وليس معنى ذلك أن الإسلام يقر غير المسلمين على ما هم عليه من العقائد والعبادات أو يأمر بموالاتهم ، إنما هو إقرار بوجود الاختلاف

*) د/ رمضان عبدالسميع إبراهيم- باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.

الذي جعله الله (عز وجل) سنة كونية ، قال تعالى:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}[يونس: ١١٨].

فالتعايش السلمي في الإسلام مشروط بعدم الإساءة للدين والمعتقدات والشرائع، فيستحيل التعايش مع الاعتداء على الدين أو المقدسات أو النيل من المعتقدات والشرائع.

والمقصود بالآخر : غير المسلمين الذين يعيشون في دولة الإسلام ويقرون بسياستها ويحتكمون إلى دستورها .

ومعنى قبول الآخر : رعاية حقوقه وواجباته الدينية والمدنية والاستعانة به في بناء المجتمع والدولة .

إن التعايش السلمي مبدأ أسسه الإسلام ، ومظهر من مظاهر سماحته ، فهو ركيزة أساسية في بناء دولة مدنية قوية ومجتمع متماسك قادر على تحمل المسؤولية وحماية البلاد من الفتن والطائفية ، وترسيخ عملي للوحدة الوطنية ، والمشاركة المجتمعية ، ورعاية الحقوق والواجبات ، كما أنه

حقيقة تاريخيـة ، وضرورة وطنيـة ومجتمعية يفرضها الواقـع الذي يعيشه الإنسان.

أهداف التعايش السلمي :

لقد تعددت أهداف التعايش بين الإسلام والآخر ويرجع أهمها إلى :

أولاً : بيان محاسن الإسلام ، ودعوة الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة .

ثانياً: تربية المسلمين على مبادئ الإسلام و تعاليمه ، ومنها : مبدأ تقبل الآخر ، وعدم التعدي على الحقوق واحترام الواجبات ، والاعتزاز بالدين ، وحب الوطن.

ثالثاً : تكاتف أصحاب العقائد في المجتمع الواحد في مواجهة الفساد والعدوان ، ودرء الخطر المتوقع علي البلاد ، ولا يتأتى ذلك إلا بالتعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد والتعاون فيما بينهم .

رابعًا : تصوير الوطن وإظهاره في المحافل الدولية

على صورته الحقيقية في أبهى صورة ، ونفي دعوى الاضطهاد والتعصب الديني والطائفية ، والتأكيد على ممارسة أصحاب العقائد المختلفة لجميع حقوقهم بصفة عامة، والحريات بصفة خاصة ، ومشاركة أبناء المجتمع في بناء الدولة " اقتصاديًّا ، وسياسيًّا ، وثقافيًّا " .

كل هذه الأهداف أرساها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في صحيفة المدينة ، حيث تعايش (صلى الله عليه وسلم) مع أهل الكتاب في المدينة تطبيقًا لمنهج الإسلام .

فحين هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد بها مزيجًا إنسانيًّا متنوعاً ، فوجد بها يهودًا ووثنيين ومشركين ، فلم يتجه فكره (صلى الله عليه وسلم) إلى عزلهم عن المجتمع أو إقصائهم أو المصادرة على عقولهم ، وإنما دعاهم إلى الإسلام فمن أبى تعايش معهم ، وعاهدهم على حرية الاعتقاد والأمن والأمان ، والدفاع المشترك عن الوطن، ووضع صحيفة المدينة التي تعد أفضل أنموذج في

فقه التعايش السلمي، وهي وثيقة تشهد بحكمته (صلى الله عليه وسلم)، وحسن قيادته في صياغة بنودها وتحديد العلاقات بين أبناء الوطن الواحد ، وتعجز العقول عن مناهضتها أو الإتيان بأفضل منها ، وقد عالجت هذه الصحيفة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية آنذاك، واشتملت على قواعد بناء المجتمع والدولة والحضارة ، ومبادئ تحقق العدالة والأمن والسلام، والحريات بأنواعها.

كما أرسى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيها مبادئ التعايش بين طوائف المجتمع منذ نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ؛ حيث جعل لغير المسلمين ما جعله للمسلمين من الحقوق والواجبات .

وقد اشتملت هذه الوثيقة على (أَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ (أَيْ: يُهْلِكُ) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ) (مجموعة الوثائق السياسية..).

على أن العهود والمواثيق والمكاتبات التي عهد بها (صلى الله عليه وسلم) إلى الرؤساء والملوك أصلت للتعايش السلمي ووضعت له مبادئ وضوابط ، فقد جاء في كتابه (صلى الله عليه وسلم) إلى نصارى نجران: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران .... ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم ، وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهنته ، وليس عليهم رُبِّيّة ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين) (مجموعة الوثائق السياسية) .

وكتب لهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) كل في خلافته كتابا ، أقر فيه كل منهما ما أقره

النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم من الحقوق والواجبات .

إن الإسلام كفل حرية الاعتقاد للبشر جميعًا ، وحذر من الإكراه بجميع أنواعه فقالَ تعالى:{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة: ٢٥٦] ، وقد طبَّقَ النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وأصحابُهُ هذَا الأساسَ تطبيقاً عمليًّا، فلمْ يُكرهُوا أحداً علَى الدُّخولِ فِي هذَا الدِّينِ العظيمِ، ولَمْ يهدمُوا لأحدٍ كنيسةً أوْ صومعةً أوْ أيَّ مكانٍ للعبادةِ بَلْ كانَتْ أمكنةُ العبادةِ محترمةً مُصانَةً عندَ المسلمينَ، فاحترام المعتقدات تقوي الروابط والعلاقات بين أبناء الوطن الواحد.

وقد أوجب الإسلام الإيمان بجميع الأنبياء والرسل ، قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ..}[البقرة: ٢٨٥]، وحذر من سب الآلهة أو التعرض لأصحاب الديانات بما يسيئ لهم أو لمعتقدهم، فقال تعالى:

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}[الأنعام: ١٠٨].

إن الإسلام لم يؤسس لمجتمع ذي لون واحد بل أطلق فكرة التعايش مع الآخر ، ورسَّخَها فِي نفوسِ أتباعه مبينًا أهم الأسس التي يقوم عليها من البِرِّ وحُسنِ الجوارِ والصلة والإحسان إلى الآخرين ومراعاة حقوقهم وواجباتهم، فجاءتِ النُّصوصُ تؤكد هذا الأساسَ وتُوضِّحُ صورَهُ التَّطبيقيَّةَ فِي المجتمعِ بقوله تعالى:{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة : ٨]. قال ابن كثير : {أَنْ تَبَرُّوهُمْ} أَيْ : تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} أَيْ : تَعْدِلُوا معهم ، فلاَ يمكنُ أنْ تستقيمَ الحياةُ ، ويتحقق الرخاء والاستقرار والأمن بدونِ تعايشٍ سلمِيٍّ وتعاونٍ بَنَّاءٍ بيْنَ أبناءِ المجتمعِ .

فالإسلامُ يدعُو إلَى البر وحسن المعاملة رغْمِ اختلافِ الدِّينِ ، والبر والقسط مظهران من مظاهر التعايش السلمي معهم ؛ لذا أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بتحقيقهما بصفة عامة مع جميع أبناء المجتمع وإن اختلفت عقائدهم ، وبصفة خاصة مع الآباء وإن كانوا مشركين ، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رضيَ اللهُ عنْهما) قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: (نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه).

ومن البر حُسْنِ جوارهم ، فقد أوصي الإسلام بالجار عامة مسلمًا أو غير مسلم، فقال تعالى:{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [النساء: ٣٦]، فالجار ذي القربى هو : الجار المسلم ، والجار الجنب هو:

الجار اليهودي والنصراني .

وكذلك أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) بحسن جوار غير المسلمين، فعَنْ أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) (رواه مسلم)، وفي رواية عن أم سلمة (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أوصى عند وفاته فقال: الله الله في قبط مصر ، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله) (رواه الطبراني في المعجم الكبير) ، وعن عبد الله بن يزيد (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم ، فاستوصوا بهم، فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله يعني قبط مصر) (رواه ابن حبان) ، وكان عمرو بن العاص (رضي الله عنه) يوصي الفاتحين بالأقباط قائلاً: (...استوصوا بمن جاورتموه

من القبط خيراً) (فتوح مصر وأخبارها).

وقدْ حفِلَتِ السيرةُ النَّبويَّةُ بصُوَرِ البر وحُسْنِ الجوارِ، وتعايش الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) مع جيرانه من غيْرِ المسلمينَ من خلال : **عيادة مرضاهم** ، فعَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمْ).فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ) (رواه البخاري) ، وكان سليمان بن موسى يقول: نعود بني النصارى وإن لم تكن بيننا وبينهم قرابة) (رواه عبد الرازق في مصنفه).

وقبول هديتهم: فهي مظهر من مظاهر البر لما لها من آثار طيبة في تأليف القلوب، وتحقق الأمن في المجتمع، وتزيل الشقاق ، حيث أمر (صلى الله عليه وسلم) بالتهادي

فقال: (تهادوا تحابوا) (رواه البخاري)، وفي رواية (تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر..) (رواه الترمذي).

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعلى في قبول الهدية من الآخر ، فقد أهدى المقوقس عظيم القبط إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) جاريتين (مارية أم إبراهيم (عليه السلام) ، وسيرين التي وهبها لحسان بن ثابت) وبغلة ، حيث ذكر ذلك في رسالته التي أرسلها للنبي (صلى الله عليه وسلم) قائلاً : (.. وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها) (زاد المعاد) ، فقبل النبي هديته مع أنه كان على نصرانيته .

وأهدى ملك إيله للنبي (صلى الله عليه وسلم) (بغلة بيضاء ، وكساء برد وكتب إليه ببحرهم) (رواه البخاري) .

ومن صُوَرِ البر وحُسْنِ الجوارِ ، والتعايش مع غيْرِ المسلمينَ: **حضور ولائمهم**: فهو مظهر من مظاهر التعايش

السلمي بين أبناء الوطن الواحد ، فعن جابر (رضي الله عنه) قال: قال: رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن شاء طعم، وإن شاء ترك) (رواه مسلم)، وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إئتوا الدعوة إذا دعيتم) (رواه مسلم)، والأمر بالإجابة يشمل دعوة المسلم وغيره.

وحضور جنائزهم، فقد ثبت أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يشيع جنائز غير المسلمين واقفًا ، فعن قيس بن سعد ، وسهل بن حنيف كانا بالقادسية فمرت بهما جنازة فقاما، وقالا : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مرت به جنازة فقام ، فقيل إنه يهودي ، فقال: أليست نفساً ؟) (رواه مسلم).

وقد بين (صلى الله عليه وسلم) أن من حق الجار على جاره مسلمًا كان أو غير مسلم تشييع جنازته ، فلما سئل يَا رَسُولَ اللهِ، مَا حَقُّ جَارِي عَلَيَّ؟، قَالَ: (إِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ، وَإِنَّ مَاتَ شَيَّعْتَهُ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ وَإِنْ عُرِّيَ سَتَرْتَهُ، وَإِنْ



أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ، وَلَا تَرْفَعْ بِنَاءَكَ فَوْقَ بِنَائِهِ فَتَسُدَّ عَلَيْهِ الرِّيحَ، وَلَا تُؤْذِهِ بِرِيحِ قِدْرِكَ، وَلَا تَغْرِفْ لَهُ مِنْهَا)(رواه الطبراني)، وكان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشيعون جنائز أهل الكتاب، فعن الثوري قال: ماتت أم الحارث ، وكانت نصرانية، فشيعها أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) قال: الثوري في بعض الحديث أنه كان يؤمر أن يمشي أمامها) (رواه عبد الرازق في المصنف).

عزاؤهم في مصيبتهم : فهو صورة من صور البر بهم ومظهر من مظاهر التعايش السلمي ، وقد وضع العلماء صيغة عزاء يواسي بها المسلم غيره في مصيبته ، قال الحسن: (إذا عزيت الذمي فقل لا يصيبك إلا خيرا، وقال غيره: إذا أردت أن تعزي رجلا من أهل الكتاب فقل: أكثر الله مالك، وولدك وأطال حياتك أو عمرك) (أحكام أهل الذمة).

كذلك من أهم الأسس التي يقوم عليها التعايش السلمي بين أفراد المجتمع: **العدل والإنصاف**، **وعدم**

التفريق في المعاملة والقضاء ، فالإسلامَ حفظَ حقوقَ الآخرينَ وصانَهَا ، وأمر بالعدل مع الجميع حتى وإن اختلفت عقائدهم، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}[المائدة: ٨] .

وقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على عدم ظلم غير المسلمين بقوله: (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(رواه أبو داود)، وعاتب الله (عز وجل) نبيه (صلى الله عليه وسلم) في شأن يهودي اتهم بالسرقة، ولم تقم عليه الحجة، وكاد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يفرق بينه وبين المسلم في المعاملة ، فبرأه القرآن الكريم ونفى عنه ما اتُّهِم به، وأنزل الله تعالى عتاباً وتوجيها لنبيه (صلى الله عليه وسلم) فقال سبحانه :{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *....وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[النساء : ١٠٥– ١١٣].

ولما فقد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) درعه وجدها عند رجل نصراني ، أقبل يقاضيه إلى شريح القاضي، وقال: إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح الرجل النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى عَلِيّ يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بيّنة ؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح مالي بَيِّنة ، فقضى بالدرع للنصراني ، إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن

محمداً عبده ورسوله ، الدرع درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش ، وأنت منطلق إلى صفين فسقطت من بعيرك الأورق، فالتقطتها فقال علي : (ما دمت قد أسلمت فهي لك) (حلية الأولياء)، ومن ثمَّ يتضح أن سماحة الإسلام في التعايش مع الآخر لم توجد في أي عقيدة أو شريعة أو دين أو ملة أخرى.

وكذلك من مظاهر التعايش السلمي في الإسلام: أن الله تعالى أباح طعامهم وشرابهم ونساءهم ، حيث أباح التعامل مع الآخر في جميع مجالات الحياة اجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا، وفكريًّا ، وأجاز طعامهم ، ومصاهرتهم وفق منهج الإسلام ، وجعل ذلك من وسائل البر بهم، قال تعالى:{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي

أَخْدَانٍ}[المائدة :٥]؛ بل ربط الله (عزو جل) بينهم بروابط وصلات تجمعهم، وتنشئ بينهم المحبة ، وتجعل في قلوبهم المودة والرحمة، وترفع عنهم عنت الحياة ومشقتها، وتجعلهم متفاهمين فيما بينهم ، قادرين على فض المنازعات وترك العداءات، فجعل الزوجة غير المسلمة سكنًا لزوجها المسلم، تبادله حبًا ويبادلها مودة كأنهما ذاتا واحدة يشتركان في لباس واحد ، كما قال تعالى:{هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ }[البقرة : ١٨٧].

وحرم النبي (صلى الله عليه وسلم) رائحة الجنة على كل من يسبب ضررًا أو ظلمًا للآخر ولا يقر التعايش معه، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (رواه البخاري) .

هذا هو منهج الإسلام الذي يدعو إلى التعايش مع الآخر، وتأمين المجتمع مما يهدد أمنه وسِلْمَه، ويخلق جوًّا

من التسامح والتعاون الذي هو أحوج ما تكون البشرية إليه الآن.

إن التعايش السلمي بين المسلمين ومختلف العقائد والثقافات حقيقة دل عليها الواقع المشاهد في البلاد، فنجاح غير المسلمين في حياتهم السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية، وتوليهم المناصب القيادية في البلاد وجميع الأعمال الإدارية ، وجعلهم من أهل الشورى، وإعطائهم حق الترشح للبرلمان، والتصريح ببناء الكنائس ، والمشاركة في كافة القضايا الهامة في البلاد دليل واضح على حسن التعايش بينهم وبين المسلمين لأن النجاح والتقدم مشروطان بالهدوء والأمن والاستقرار وطمأنينة النفس وكل ذلك متوفر لهم داخل البلاد دون أدنى تفرقة، والتاريخ والواقع يؤكدان أن المسلمين في مصر أحسنوا الجوار والتعايش مع غيرهم تنفيذًا لأمر الله (عز وجل)، ووصيته (صلى الله عليه وسلم)، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ



(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) أَوْ قَالَ: (ذِمَّةً وَصِهْرًا...) (رواه مسلم).

كما شهد غير المسلمين بالتعايش السلمي بينهم وبين المسلمين في مصر فقال البابا شنودة (مصر هي الوطن ....وكل شعبها هم الأمل والأصدقاء ... نعيش معًا ونأكل معًا ....ونشارك بعضنا بعضًا في الأحزان والأفراح) (الأقباط في مصر والمهجر) .

الإسلام دين الحفاظ على الدماء والأموال والأعراض (*)

الإسلام دين اختاره الله وفضله على كل الأديان ، قال تعالى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...}[آل عمران: ١٩] ، وقال تعالى :{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥].

ومن عظمة هذا الدين أنه يحافظ على حرمة الدماء والأموال والأعراض ، لما لها من منزلة عظيمة ، فهي من الضرورات الخمس التي يجب المحافظة عليها ، وهي (الحفاظ على : النفس ، الدين ، العقل ، العرض ، المال).

أما عن حفظ الدماء فقد ورد النهي في القرآن الكريم عن قتل النفس والتحذير من إراقة الدماء بغير حق في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى:{وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ...}[الأنعام:١٤] ، وقال تعالى : {وَلاَ

*) الشيخ / يوسف مصطفى أحمد–باحث بالإدارة العامة لبحوث الدعوة.



تَقْتُلُوا النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إلاَّ بِالْحَقّ...}[الإسراء: ٣٣] ، وبينت السنة النبوية أن المؤمن لا يزال في فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً وإلا وقع في ورطات الأمور ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ : (إِنَّ مِنْ وَرْطَاتِ الأُمُورِ الَّتِى لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا ، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ) (رواه البخاري)، وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (رواه البخاري).

بل إن ذلك ليعد من المهلكات ، فعن أَبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ ! قالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكُ باللهِ ، والسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ ، وأَكلُ الرِّبَا ، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) (متفق عَلَيْهِ).

ويؤكِّد النبي (صلى الله عليه وسلم) على عِظَم هذه الجريمة تنفيرًا للنفوس من ارتكابها ، وبياناً لخطورتها ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (لَوْ أَنّ أَهْلَ السّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبّهُمُ اللَّهُ فِي النّارِ) (رواه الترمذي).

وقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على حرمة الدماء في خطبة الوداع ، فعن أَبي بَكْرة (رضي الله عنه) أنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قَالَ في خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى في حَجَّةِ الوَدَاعِ: (إنَّ دِماءكُمْ ، وَأمْوَالَكُمْ ، وأعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا، ألا هَلْ بَلَّغْتُ) (متفق عَلَيْهِ).

كما أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على حرمتها في أحاديث أخرى ، منها : ما رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ) (رواه مسلم)، ولم يكن موقف



الإسلام في الحفاظ على الدماء قائماً على تحصين المجتمع المسلم داخليًّا فقط ، بل امتدّت نظرته لتشمل العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، فتجد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)- في معظم أحواله- يبحث عن الطرق السلميّة والهادئة للتعامل مع المخالفين له ، حتى وإن كانوا في حالة حرب معه ، فكان من جملة وصاياه لقوّاده دائمًا: (لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلاَ طِفْلاً، وَلاَ صَغِيرًا، وَلاَ امْرَأَةً) (رواه أبو داود).

ويحرص النبي (صلى الله عليه وسلم) كذلك على تجنُّب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ومما يدل على ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا عليِّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) عندما أعطاه الراية في غزوة خيبر: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النّعَمِ)(رواه البخاري).

وليس هذا فحسب بل إن ترويع المسلم في الإسلام

منهي عنه ولو كان من باب الدعابة أو الفكاهة، فعن أَبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قال: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ (صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ)(رواه مسلم).

على أن هذا النهي والتحريم يشمل المسلم وغير المسلم ، وسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) خير شاهد على ذلك ، فها هو ذا زيد بن سُعْنَة الحبر اليهودي يأتي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ليطلب دَيْنًا له عنده ، فيأخذ زيدٌ بمجامع قميصه (صلى الله عليه وسلم) ، وينظر إليه بوجه غليظ ، ويقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ألا تقضيني – يا محمد – حقِّي؟ فو الله إنكم– يا بني عبد المطلب– قوم مُطْلٌ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم ، فيقول زيد بن سُعْنَة : نظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره ، وقال: أي عَدُوّ الله ، أتقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أسمع،



وتفعل به ما أرى؟ فو الذي بعثه بالحقِّ ، لولا ما أُحاذر فَوْتَهُ لضربتُ بسيفي هذا عنقكَ. ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينظر إلى عمر في سكون وتُؤَدة ، ثم قال : (إنّا كُنّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ ، اذْهَبْ بِهِ – يَا عُمَرُ – فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ) (رواه ابن حبان).

وكما حافظ الإسلام على الدماء حافظ أيضا على الأموال

فالحفاظ على المال في الإسلام (سواء كان عاماً أو خاصاً) ضرورة شرعية، لأن به تدار شئون البلاد والعباد ، ويعتبر الاعتداء عليه اعتداءً على مجموع الأفراد والمجتمع، لأن الذي يسرق من المال العام فإنه يسرق من الأمة كلها ، وعليه إثم كل من له حق في هذا المال ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : خرجنا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهبا ولا ورقا ، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب ، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحل رحله فرمي بسهم فكان فيه حتفه، فقلنا هنيئا له الشهادة يا رسول الله ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (كلا والذي نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه نارًا أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم)، قال: ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال يا رسول الله أصبت يوم خيبر ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): شراك من نار أو شراكان من نار) (رواه مسلم).

والمتأمِّلُ في عالم الناس اليوم يرى أنه عالمٌ تغيَّرت فيه كثيرٌ من القِيَم الصّحيحة، وتبدَّلت فيه المفاهيمُ المستقيمة ، عالمٌ سَيْطَرَت فيه المادة على نفوسِ كثير من الناس ، وإيثارُ المالِ هَيْمَن على قُلوبِهم فراحوا يجمعون الدّنيا بكلِّ طريق ويستكثِرون منها بأيِّ سبيل، وتساهلوا في

جمع الأموال، لا يهمهم حلال أم حرام ، حتى صدَق فيهم قول المصطفي (صلى الله عليه وسلم) : (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ) (صحيح البخاري).

ومن صور الاعتداء على المال العام : السرقة ، والاختلاس والرِّشوة ، والتربُّحُ من الوظيفة ، أو استغلال المال العام لأغراض سياسية حزبية فئوية ، وغير ذلك من صور الاعتداء ، فقد شَرَع الله (عزّ وجلّ) العقوبة على ذلك فقال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[المائدة:٣٨]، بل شرع حد الحرابة لمن يسطو عليه غصبًا ، فقال سبحانه :{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[المائدة: ٣٣].

ومن صور الاعتداء على المال العام كذلك : اغتصاب الأرض بوضع اليد عليها ظلمًا، أو الاعتداء على أملاك الدولة والأوقاف ، فعن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عن رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ) (متفق عليه).

إن المال العام أمانة عند كل من يكون تحت يده شيء منه، فيجب عليه أن يحافظ على تلك الأمانة، وأن يرعاها ، وأن يردها كاملة غير منقوصة، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} [النساء: ٥٨].

ومما يدل على عظم حرمة المال العام ما جاء في الصحيحين من حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ

وَهَذَا أُهْدِيَ لِي قَالَ فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ ، أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ- اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ثَلاَثًا) (متفق عليه) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَن النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ) (رواه البخاري).

ولقد تربى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الحفاظ على المال العام ومراعاة حرمته ، فها هو الصديق (رضي الله عنه) لما تولى الخلافة في صبيحة ولايته يخرج من بيته واضعًا حبله على عاتقه ذاهبًا إلى السوق متاجرًا ليعيش من كسب يده، فينادي عليه سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قائلاً : يا أبا بكر قد كفيناك اجلس لمصالح المسلمين، ثم ينادي عمر (رضي الله عنه) على أبى

عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) أمين الأمة ويقول: يا أبا عبيدة ، اجعل لأبى بكر ما يكفيه وأهله من بيت المال، فيقول أبو عبيدة: له مقدار شاة في كل يوم وليلة، وله ثوب في الصيف وثوب في الشتاء، لا يأخذ ثوب الصيف إلا إذا سلم ثوب الشتاء، ويستمر أبو بكر على هذا مراعيًا حقَّ الأمة حريصًا على مالها العام حتى نهاية حياته ، فعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ (رضي الله عنهما) قَالَ: لَمَّا احْتُضِرَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: يَا عَائِشَةُ انْظُرِي اللِّقْحَةَ الَّتِي كُنَّا نَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا، وَالْجَفْنَةَ الَّتِي كُنَّا نَصْطَبِحُ فِيهَا ، وَالْقَطِيفَةَ الَّتِي كُنَّا نَلْبَسُهَا، فَإِنَّا كُنَّا نَنْتَفِعُ بِذَلِكَ حِينَ كُنَّا نَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا مِتُّ فَارْدُدِيهِ إِلَى عُمَرَ ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ أَرْسَلَتْ بِهِ إِلَى عُمَرَ، فَقَالَ عُمَرُ: رَحِمَكَ اللَّهُ لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ) (مجمع الزوائد).

ولما تولى الخلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سار بالمسلمين حافظًا لهم ولأموالهم مراعيًا حرمة المال



العام حتى إنه سار يوما فرأى إبلًا سمانًا فقال لمن هذه الإبل؟، فقالوا له: إنها لعبد الله بن عمر ، فقال (رضي الله عنه) : ضموها إلى بيت المال فوالله ما سمنت إلا باسم أمير المؤمنين ، إذا رعت هنا أو هناك قالوا : دعوها إنها إبل ابن أمير المؤمنين، ثم قال: ردوها إلى بيت المال .

وها هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يستدعى أحد عماله ليحاسبه عن رعيته ويوقد أمير المؤمنين مصباحًا ليتم الحساب في ضوئه ، ولما انتهى حساب الرجل بدأ يسأل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عن صحته وعن أولاده ، فيقوم عمر بن عبد العزيز إلى المصباح فيطفئه ثم يوقد مصباحًا آخر ، فيسأل الرجل أمير المؤمنين عن ذلك العمل فيقول (رضي الله عنه) : عندما كنت أحاسبك عن الرعية كنا نستضيء بمصباح يوقد بزيت من بيت مال المسلمين ، أما وقد انتقل الحديث والسؤال عنى وعن أولادي أوقدت غيره من مالي الخاص لأنه لا

يحل لنا عندئذ أن نستضيء بمصباح يوقد بزيت من مال المسلمين.

فالمال العام مِلْكٌ للمسلمين جميعًا ، وليس مِلْكًا لفِئَة معيَّنة من الناس، والقائمون عليه إنَّما هم أُمَناء في حِفْظه وتحصيله ، وصَرْفه لأهْله فلا يحلُّ لأحدٍ أن يعتديَ عليه، أو يأخُذَ منه ما لا يستحقُّ ، لأن ذلك يعد خيانة وظُلمًا واعتداءً على المسلمين جميعًا.

وعلى مر العصور والأزمنة يتعرض المال العام للاعتداءات، وإن تغيرت في الشكل والطريقة والأسلوب إلاّ أن مضمونها واحد ، ويتمثل ذلك في استئثار أحد الأفراد به وحده بدون حق ، أو انتزاع ملكيته من مجموع الناس إليه بدون حق ، أو سوء استخدامه أو إتلافه .

وكما حرم الإسلام الاعتداء على المال العام ،كذلك حرم الاعتداء على المال الخاص وجعله محرمًا على الغير ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه

وسلم) قال: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ) (رواه مسلم).

وكما حافظ الإسلام على الدماء والأموال حافظ أيضا على الأعراض، فالحافظ عليها من أهم مبادئ الإسلام ، حيث حرم الاعتداء عليها بالإيذاء أو النظر ، أو السخرية ، وكذلك حرم الغيبة ، والنميمة ، وغير ذلك مما يتأذى منه المسلم ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[الحجرات:١٢،١١] ، فمن وقع في ذلك فهو على خطر عظيم إن لم يتحلل منه صاحبه قبل موته ، فعَنْ أَبِي

هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) (رواه البخاري).

إن الإسلام يكره ويبغض كل خلق ذميم ، وهذا ما وضحه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأكد عليه ، فعن أبي هُريرةَ (رضي الله عنه) أنَّ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ ؟ قالوا : المفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرهَمَ لَهُ ولا مَتَاع ، فَقَالَ : إنَّ المُفْلسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يأتي يَومَ القيامَةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ويأتي وقَدْ شَتَمَ هَذَا ، وقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مالَ هَذَا ، وسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا ، فيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وهَذَا مِنْ حَسناتهِ ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُه قَبْل أنْ يُقضى مَا عَلَيهِ ، أُخِذَ منْ خَطَاياهُم فَطُرِحَتْ عَلَيهِ ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ) (رواه مُسلم).

محتويات الكتاب